ديوان ابن الرومي
(١)
كلمة عامة تمهيدية

هذا الكتاب أصغر من عنوانه، اسمه «ديوان ابن الرومي» وحقيقته مختارات من شعره انتخبها شاب فاضل من أنصار المذهب الجديد في الأدب، هو كامل أفندي كيلاني، وأهداها إلى روح والدته التي «فقد بفقدها أكبر مصدر من مصادر الحنان والعطف» وجعلها ثلاثة أجزاء في مجلد واحد، جملة صفحاته خمسمائة، فيها قريب من سبعة آلاف بيت. وصدرها بمقدمة رائعة وضعها صديقنا الأستاذ العقاد في «عبقرية ابن الرومي» لم يدع فيها شاردة ولا واردة، ولا ترك شيئًا لسواه يقوله، حتى صار قصارى غيره إذا كتب أن يترسمه ويفصِّل ما أجمل.

وهذه المختارات، في ذاتها، خير ما كان ينتظر، وإن كانت على هذا مجموعةً حيثما اتفق، ومسرودة على غير نسق مفهوم ونظام معلوم، ولم تكن وراءها فكرة ظاهرة أو غرض يطالعك، سوى حشد طائفة من الشعر! ولقد والله آلمنا، ونحن نتصفح الكتاب ونعبر ما فيه من المختارات، أن نرى ابن الرومي مقطّع الأوصال مبعثر الأشلاء على هذه الصورة! ولعلنا مخطئون أو مبالغون في إساءة الظن بالمختارات على العموم، وفي عدم الركون إليها والاعتماد عليها. ولكن ابن الرومي ليس كغيره من شعراء العرب، وما في الوسع أن تقتطع له أبياتًا من هنا، وأخرى من هاهنا، ثم تقول هذا هو ابن الرومي. كما لا يسعك أن تختار نخبًا من رواية لشكسبير مثلًا، وأن تزعمها بعد ذلك هملت أو الملك لير أو مكبث أو غير ذلك، إنما كان هذا هكذا لان ابن الرمي أقرب إلى شعراء الغرب وبهم أشبه، ولأن البيت في قصائده يندر أن يكون

وحدة قائمة بنفسها، مستقلة عما قبلها وبعدها إلا من حيث معاني النحو، كما هو في قصائد العرب. وكثيرًا ما يشذ ويخالف أوضاع العرب في اعتبار البيت كلامًا تامًّا في ذاته غير متعلق بما يليه على مقتضى أحكام اللغة.

ولسنا نطمع أن نضيف شيئًا إلى ما قاله صديقنا الأستاذ العقاد في مقدمته الجامعة، فأنا من ذلك على يأس كبير، وإنه ليكون حسبنا أن نستطيع أن نصف هذا الشاعر، لا أن نحلله، لمن لا يعرفون عنه إلا اسمه، وإلا بضعة أبيات سارت على الرغم من خمول قائلها، وأن نحببه إليهم، ونغريهم بقراءته والإقبال على مطالعته. وابن الرومي، بعد، أحب شعراء العرب إلينا وأعزهم علينا، فليس أعذب ولا أشهى لدينا من أن نقضي ساعة معه ولو كل أسبوع.

وكأنّا بابن الرومي قد بدأ النحس يزايله! ففي بضعة أعوام طبع جزءٌ من ديوانه وجمعت له مختارات يستحق جامعها وناشرها أطيب الثناء. وما بالقليل أن يفوز بذلك من خمل في حياته خمولًا منقطع النظير في تاريخ الآداب، مع وضوح حقه والإقرار له بالتفرد حتى في زمانه، ومن خفي شأنه أكثر من عشرة قرون طويلات المدد! وناهيك برجل كان يسح بالشعر سحًّا، ويملأ الدنيا بالرائع منه المتداول الذي ينشد في مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء، ويروى في حلقات العلماء والأدباء، وهو مع ذلك يجوع ويظمأ ويعرى، ولا يجد من يسد خلته، ويستر فاقته، ثم يموت فيطوي معه ذكره وشعره، ويظل مغمورًا كل هذه القرون لا يعرف عنه حتى الخاصة أكثر مما ورد في تراجم العرب -غفر الله لهم- من أن اسمه علي بن العباس بن جريج أو جروجيوس -فإن في اسم جده شكًّا واختلافا!!- وأن ولادته كانت ببغداد يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين في موضع يعرف، أو كان يعرف بالعقيقة ودرب الختلية في دار بإزاء قصر لمولاه عيسى

بن جعفر بن المنصور من نسل العباس بن عبد المطلب! ثم كأنه لم يكن!

أما كيف كان يعيش، أو ماذا كان يصنع غير الشعر الذي يقولون: «إنه كان أقل أدواته» فلا يدري أحد! فليس أمامنا ما نعوّل عليه سوى شعره، ويؤخذ منه أنه كانت له ضيعة! نعم ضيعة مغلة أشار إليها في قوله يعتذر لبعضهم من التخلف والانقطاع عنه:

وبعد فإن عذري في قصوري ... عن الباب المحجب ذي البهاء
حدوث حوادث منها حريق ... تحيّف ما جمعت من الثراء
فلم أسأل له خلقًا ولكن ... دعوت الله مجتهد الدعاء
ليجعله فداءَكَ إن رآه ... فداءك أيها الغالي الفداء
وأما قبل ذاك فلم يكن لي ... قرار في صباح أو مساء
أعاني «ضيعة» ما زلت منها ... بحمد الله قدمًا في عَناء

غير أن الله لم يبارك له فيها ولا في غلتها! كما هو ظاهر من الأبيات التي أوردناها. وكان إذا أخطأه الحريق الذي يتحيف ماله، لا يخطئه الجراد يأتي على زرعه كما يقول:

لي زرع أتى عليه الجراد ... عادتي مذ رُزيته العواد
كنت أرجو حصاده فأتاه ... قبل أن يبلغ الحصادَ الحصادُ

وكانت له دار غير التي مات فيها فغصبتها منه امرأة!! فكاد يجن! واستصرخ الوزير عبد الله بن سليمان بقصيدة يقول فيها:

أحسن أسرت الدهر بعد عتوّه ... وفلّلت منه كل ناب ومخلب
فأصبحت مكفيًا همومي مزايلًا ... غمومي موقًّى كل سوء ومعطب

تهضمني انثى وتغصب جهرة ... عقاري وفي هاتيك أعجب معجب

لقد أذكرتني لامرئ القيس قوله ... «فإنك لم يغلبك مثل مغلب»!

أجرني! وزير الدين والملك إنني ... إليك بحقي هاربٌ كل مهرب

توثب شخص واهن الركن والقوى ... على أيد الأركان لم يتوثب

هو النكر من وجهين: غصب وبدعة ... وفي النكر من وجهين موضع معتب

فلا تسلمني للأعادي وقولهم ... ألا من رأى صقرًا فريسة أرنب!

أريد ارتجاع الدار لي كيف خيلت ... بحكمٍ مُمَر أو بلطف مسبب

يعني: بحكم قضائي نافذ أو بحيلة لطيفة. فيا له من مسكين!

ولم يكن مولاه هذا العيسى بن جعفر يوليه شيئًا من جاهه أو ماله فكثر عتاب ابن الرومي له، ومما قاله:

ما لي أسل من القراب وأغمد؟ ... لِمَ لا أجرد والسيوف تجرد؟

لِمَ لا أجرد في الضرائب مرة ... يا للرجال وإنني لمهند؟

بل قد حكى التجريبُ أني صارم ... ذكر فلِمَ أُلقى ولا أتقلد؟

لِمَ لا أحلى حلية أنا أهلها ... فيزان بي بطل ويكفى مشهد؟

أنا من علمت مكانة وابن الذي ... ما زال فيكم يستعان فيحمد

لا تبتروا عندي وعند أبي يدًا ... بيضاء ما جحدت وليست تجحد

أولوا وليكم حديثًا مثله ... يصل القديم وتستتم به اليد

يثمر لكم حمدين: حمدًا منكم ... لهما وحمدًا منهما لا ينفد

أرعوا زروعكم عيون تعهد ... منكم فمثل زروعكم تستعهد

أنـا مـن عرفـت وفـاءه وصـفاءه ... وولاءه إيـاك إذ هـو أمـرد

إلا أكـن في كـل ذلـك أوحـدًا ... فـردًا فـإني في المـودة أوحـد

هبني امرأ ليست لـه بـك حرمـة ... ترعـى أمـا لي زلـة تـستغمد؟

فلم يجده العتاب والتألف وقضى أكثر عمره في ضيق ليس أبلغ في الدلالة على أثره في نفسه وفي جسمه من قوله:

أيا حسرتا إن أفسد الضيق صحتي ... فضاعف حاجاتي وأوهى قوى نهضي!

وكان يبلغ من فاقته ورقة حاله وهوان أمره، أن كان يُدفع عن الأبواب بفظاظة، وإلى هذا يشير بقوله:

وكم حاجب غضبان كاسر حاجب ... محا الله ما فيه من الكسر بالكسر

عبوس إذا حييته بتحية ... فيا لك من كبر ومن منطق نزر!

يظل كأن الله يرفع قدره ... بما حط من قدري وصغّر من أمري

إذ ما رآني عاد أعمى بلا عمى ... وصم سميعًا ما بأذنيه من وقر

أزف إليك البكرَ ما زُف مثلها ... فيدفع منها في التراثب والنحر

ومن شيم الحجاب أن قلوبهم ... قلوبٌ على الآداب أقسى من الصخر

بل كان من الفقر بحيث كان يستجدي من إخوانه الكساء فلا يصيب منه قصاصة، وله في ذلك شعر كثير ومنه قوله:

جعلت فداك لم أسألك ... ذاك الثوب للكفن!

سألتكه لألبسه ... وروحي بعد في البدن

وربما فاز، ولكن بما لا يعد ثوبًا إلا على المجاز! كما يقول في ثوب عتيق جاء مرة:

قد طوى قرنًا فقرنًا ... وأناسًا فأناسا

لبس الأيام حتى ... لم يدع فيها لباسا

غاب تحت الحس حتى ... ما يُرى إلا قياسا!

وكان يمدح أهل الثراء فلا يصيب إلا الرد، ويستصرخ القادرين فلا يغنون عنه، بل لا يقرءون كلامه أحيانًا كما يدل على ذلك قوله لصاعد بن مخلد:

يا سيدًا لم يلتبس عرضه ... بذم رائيه ولا خابره

ظاهره أحسن من غيبه ... وغيبه أحسن من ظاهره

ومن إذا الرأي خبا نوره ... فإنما يقدح من خاطره

فلا ترى أثقب من ذهنه ... فيه ولا أيمن من طائره

أول ما أسأل من حاجة ... أن تقرأ الشعر إلى آخره

قراءة تصدر عن نية ... تفهم قلب المرء عن ناظره

ولم يكن أهله على ما يظهر أرفق به ولا أحسن رعاية له كما هو واضح من قوله:

لي ابن عم يجر الشر مجتهدًا ... عليَّ قدمًا ولا يصلَى له نارًا

يجني فأصلَى بما يجنى فيخذلني ... وكلما كان زندًا كنت مسعارًا

وقوله من قصيدة أخرى وهو أوضح وأعم:

وأني لبرٌّ بالأقارب واصل ... على حسد في جهلهم وعلى بغض

ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان بعض الشيء ولكن شيخنا كان أيضًا يتطير، وكان

طياشًا وبه حماقة، أو إن شئت فقل: إنه كان لطيف الشعور، دقيق الحس، عارفًا قدر نفسه وأقدار غيره من معاصريه، فأورده ذلك موارد مُرَّة، وكان ربما لزم بيته أيامًا لا يخرج ولا يتصرف، وحوله صبية ونساء جياع ظماء، مخافة أن يبرح الدار فيباغته ما لا قبل له باحتماله مما يتطير منه، وقد كان يتطير من كل شيء! والناس لا يدركهم عليه عطف، ولا تأخذهم بضعفه هذا رحمة، ولا يصدهم إنصاف أو تقدير عن معابثته بما يكره وما يثقل وقعه عليه، فواحد يعيبه بمشيته ويزعمها مثل مشية المخنثين، كما فعل أخو «نضير» وكان ابن الرومي يريد أن يتزوج ابنته، وآخر يقدح في شعره وهو يستجيده ليهيجه ويدفعه إلى الهجاء، وكان ذلك دأب الأخفش ووكده، وثالث يعيره ببغضه للقلانس والبرانس وإيثاره العمامة على خلاف أهل عصره، ورابع يستفزه بالإيماء إلى صلعته والتضاحك منها. وهو أحس بذلك كله من أن يستطيع الاحتمال والسكوت، حتى لقد كان في شغل مضن من الرد على عائبيه ممن لا يخفى عليهم مكانه، ولا يقصدون إلا إلى استثارته ليركبوه بالمزاح.

وهكذا عاش ابن الرومي؛ فقر وغمط وحرب طاحنة الأرجاء بينه وبين مناجزيه من الجادين والهازلين، ولم يكن ينقصه إلا أن يدس عليه الوزير أبو القاسم من يطعمه فطيرًا مسمومًا لتتم رواية الشؤم التي لا تزال لها ذيول على ما يظهر! فقد كتبت عنه منذ عشر سنين بضع مقالات فلم أكد أفرغ من الأولى أو الثانية حتى يكسر رجلي ما لا يكسر! وشرح الشيخ شريف الجزء الأول من ديوانه فأحيل إلى المعاش! وطبع صاحب المكتبة التجارية هذه المختارات من شعره فهيضت ساقه! فعسانا حين نعود للكلام عليه لا نكون قد دقت عنقنا!

(٢)
أصله

لم يكن ابن الرومي عربيًّا ولا شبيهًا بالعرب وإن كانت العربية لغته التي لم يكن يعرف -أو التي لا نعلم أنه كان يعرف- سواها، ولقد ولد وشب وترعرع بين العباسيين ولابسهم وصار منهم «بقضاء من ختمت رسل الإله به» كما يقول، ولكنه لم يصر بذلك كالعرب، لا في طبيعته ولا في فنه ولا في أساليب تفكيره، بل حتى ولا في عاداته وأخلاقه. وقد ذهب بعض كُتَّاب العرب إلى أنه سُمِّي ابن الرومي لأنه كان جميلًا في صباه، وأوردوا ذلك على أنه احتمال معقول وتعليل مقبول. وليس الأمر كذلك ولا هو يمكن أن يكون كما زعموا، وأحسب من يقول بذلك إنما يدل على أنه لم يقرأ شعر ابن الرومي بغير عينيه.. فإن الرجل لم يدع مجالًا للشك في أنه رومي على الحقيقة لا على المجاز. ومن غريب ما يلاحظ المطلعُ على ديوان هذا الشاعر، أنه ينمي نفسه إلى الروم، ويذكر في أكثر من موضع واحد أنهم أصله، وإن كان جده لأمه فارسيًّا كما أن جده لأبيه رومي. وشاهدنا على ذلك قوله في نونيته الشهيرة التي مطلعها:

أَجْنَيْنَـك الوجـد أغـصان وكثبـان ... فـيهن نوعـان: تفـاح ورمـان

إن الرحيـل إلى مـن أنت آملـه ... أمـنٌ لمزمعـه بـالنجح إيقـان

فـادعُ القـوافي ونـصَّ الـيعملات لـه ... تجبـك كـل شرود وهـي مـذعان

إن لم أزر ملكًـا أشـجى الخطـوب بـه ... فلـم يلـدني أبـو الأمـلاك (يونـان)

بـل إن تعـدت فلـم أحـسن سياسـتها ... فلـم يلـدني أبـو الـسواس (ساسـان)

ولكنه يدع الفرس قوم أمه ولا ينتسب إلا للروم أهل أبيه، حتى حين يفخر بمواليه من بني العباس ويعتدهم أهله، مع إنه لم يكن يخفى عليه مقدار تغلغل الفرس في الدولة العباسية وتغلب المدنية الفارسية عليها:

قومي بني العباس حلمهم ... حلمي كذلك وجهلهم جهلي
تبلى نبالهم إذا نزلت ... بي شدة ونبالهم نبلي
لا أبتغي أبدًا بهم بدلًا ... لف الإله بشملهم شملي!
ومتى وردت حياضهم معهم ... لم يشربوا صفواتها قبلي
قوم غدا بري وتكرمتي ... من شغلهم ومديحهم شغلي
المنعمون عليّ أنعمهم ... والحامدون لكل ما أبلي
أنا منهم بقضاء من ختمت ... رسل الإله به وهم أهلي
مولاهم وغذِيّ نعمتهم ... والروم حين تنصني أصلي

ويكرر ذلك حين يمدح الأخفش المعاصر له ويفضله على الأخفش القديم، ويذكر أنه غريب بين الاثنين، وأنه لذلك بعيد عن المحاباة، وفي هذا يقول:

ذُكر الأخفش القديم فقلنا ... إن للأخفش الحديث لفضلا
وإذا ما حكمت -والروم قومي- ... في كلام معرب كنت عدلا
أنا بين الخصوم فيه غريب ... لا أرى الزور للمحاباة أهلا

ويعاتب محمد بن عبد الله فيقول في آخر القصيدة:

إذا الشاعر الرومي أطرى أميره ... قندهيك من مطري وناهيك من مطر

لا كأبي نواس الذي كان يخلط في دعوته وينتسب مرة إلى النزارية، وينتمي مرة

أخرى إلى اليمانية، وكان قبل ذلك يتعاجم في شعره، وإنه ليعلم أن الفرس قد مضوا بأصله وإنهم أحق به إذا أراد أن يدعى لأحد.

ويظهر أنه كان شديد الإحساس برروميته والشعور بغربته. والاثنان متلازمان، فتراه يزهو تارة ويباهي بأن الروم أصله، كما هو ظاهر مما مر بك من كلامه. ويألم تارة أخرى أنه غريب بينا لعرب، وفي ظلهم، وأنه فقد بذلك وطنه، كما تتبين ذلك من قولهم لبعضهم وكان قد بلغه أنه يحسده ويعيب شعره، ولعله الوحيد الذي فرَّق بين الجنسية الدينية والجنسية القومية وأحس الألم لفقدانه «الوطن»:

أيها الحاسدي صحبتي العُسر ... وذَمِّي الزمان والإخوانا

حسدًا هاجه على ثلب شعري ... ولقائي معبسًا غضبانا

وانتقاصي مع «العدو» وقد كا ... ن يرى لي نقائصي رجحانا

ليت شعري ماذا حسدت عليه ... أيها الظالمي إخائي عيانا؟

أعلى أنني ظمئت وأضحى ... كل من كان صاديًا ريانا؟

أم على أنني ثكلت شقيقي ... وعدمت الثراء والأوطانا؟

ولسنا نظن أحدًا سيقول: إنه ما جاء بالأوطان إلا من أجل القافية! فليس ابن الرومي مَن تعييه القافية أو تضطره إلى غير ما يريد أن يقول. وإنك لتقرأ شعره فيخيل إليك أنه يتناول الألفاظ ويقسرها قسرًا على أداء المعاني التي يقصد إلى تبيينها والعبارة عنها.

ومن أجل ذلك لم يكن يفخر بقومه كما فعل مهيار الديلمي -وهو فارسي الأصل- حين قال يعني الفرس:

قومي استولوا على الدهر فتى ... ومشوا فوق رءوس الحقب

بل كان يقول حتى حين يمدح نفسه ويشيد بكرم أخلاقه:

أُغضي الجفون عن السوءى مراقبة ... لما يكون من الحسنى وما كانا

أجزي الأخلاء صفحًا عن إساءتهم ... إذا أساءوا وبالإحسان إحسانا

أذكر النفس مثنى من محاسنهم ... إذا ذكرت ذنوب القوم أحدانا

وليس ذاك لآبائي ومجدهم ... لكن لأني اتخذت العدل ميزانا

والبيت الأخير هو الشاهد. وهو لفرط إحساسه بغربته دائم الالتفات إلى هذا المعنى، يمدح يحيى بن علي المنجم فيقول فيه:

ربّ أكرومة له لم تخلها ... قبله في الطباع والتركيب

غرّبته الخلائق الزهر في النا ... س وما أوحشته بالتغريب

فكأنه يعني نفسه بهذا البيت ويحتاط في التعبير من أجلها ويصف حاله هو لا ممدوحه.

ويهجو إسماعيل بن بلبل فلا يرى إلا أن يشتهر بانتسابه إلى شيبان زورًا ويقول:

تشيبن حين همَّ بأن يشيبا ... لقد غلط الفتى غلطًا عجيبا

ويقول في قصيدة أخرى مشنعًا:

عجبت من معشر بعقوتنا ... باتوا نبيطًا وأصبحوا عربا

مثل أبي الصقر إن فيه وفى ... دعواه شيبان آية عجبا

بيناهُ علجًا على جبلّته ... إذ مسه الكيمياء فانقلبا

عربه جده السعيد كما ... حول زرنيخ جده ذهبا

وهكـــذا هـــذه الجـــدود لهـــا إكـــسير صـــدق يعـــرب النـــسبا

وبعد، فلأي غاية نأتي بهذه الشواهد ونستكثر منها؟ أكل ذلك لنقول: إنه كان روميًّا ولم يكن عربيًّا؟ أوَلم يكن يكفي أن نذكر اسمه، وأن نقول: إنه كان مثله أجنبيًّا من الأمة التي شب وشاب بينها، ونطق بلسانها، وحذق علومها، وتوفر على آدابها، واستظل بمدنيتها؟ وما قيمة ذلك؟ ألم يكن كغيره من الغرباء من مثل بشار بن برد ومروان بن أبي حفصة وأبي نواس ومهيار وابن المقفع وابن العميد والخورازمي وبديع الزمان وأبي إسحاق الصابئ وأبي الفرج الأصبهاني وغيرهم ممن لا يكاد يأخذهم حصر؟ نقول: نعم، كان كهؤلاء من غير الأمة التي نبت فيها، ولكنه يختلف عنهم -أو عن كثير منهم- ويباينهم بأنه احتفظ بطبيعة الجنس الذي انحدر منه، حتى صارت روميته هذه التي يتشبث بها ويعلنها، ولا يكتمها ولا يقشبها بالفارسية -مفتاح شعره ونفسه، وحتى لا سبيل إلى فهمه وتقديره بغير الالتفات إليها والتنبه لها. وإنه ليصلح أن يتخذه المرء شاهدًا على قوة الوراثة وفعلها، على الرغم من كل تأثير مناهض لها مضعف لفعلها. «فالرومية» كما يقول صديقنا الأستاذ العقاد بحق: «هي أصل هذا الفن الذي اختلف به ابن الرومي عن عامة لشعراء في هذه اللغة، وهي السمة التي أفردته بينهم إفراد الطائر الصادح في غير سربة، وربما بذَّهم في أشياء، وقصر عنهم في أشياء غيرها، ولكنه لا يشبههم ولا يشبهونه في تفوقه وتقصيره على السواء، فلهذا انقطع ما بينه وبينهم من نسب الأدب وجرثومة الفن، لا لأنه أفضل منهم جميعًا ولا لأنهم جميعًا أفضل منه».

وسنحاول في المقال الآتي أن ندير هذا «المفتاح» في القفل، وإنها لفرصة نغتنمها لنستأنف ما حاولناه منذ عشر سنين من تعريف الناس بهذا الشاعر الفذ، فلعلنا نوفق فإن المهمة شاقة، وحبل الكلام طويل، وشعبه كثيرة.

(٣)
شخصيته
(أ)

عاش ابن الرومي، ما عاش، ساخطًا على الحياة ناقمًا على العصر وأبنائه، مضطغنًا على الزمن وصروفه، طافح النفس بالمرارة والألم إلى حد لم يعرفه أحد من الشعراء المعاصرين. وشعره الذي قيد فيه كل حالة من حالات نفسه، وأودعه ما استطاع من التفاتات ذهنه، حافلٌ بالشواهد على ذلك، وعذره من هذا التمرد عذر كل حسّاس مصقول النفس مثقف العقل، تصطدم عنده الآراء والعقائد بمظاهر الحياة وواقع الحال. وليس أقسى من أثر ذلك في النفس ولا أوجع. ولسنا نحتاج أن نرجع إلى عصره بصفة خاصة. فإن الحياة كانت قديمًا وما زالت إلى الساعة، وستظل إلى آخر الزمان، إن كان له آخر، صراعًا دائمًا وجهادًا متواصلًا. وما نظن الحياة الإنسانية خلت قط من بواعث السخط ودواعي التذمر، وما كان المرء ليهتدي إلى الشعور بنفسه ولينطق بقولة «أنا» لولا ذلك، ولولا إحساسه إلى جانب هذا -أو قبله- بحدود قدرته، وباحتكاكه بما يجاوز هذه الدائرة، ويحدد هذا المجال، وقد يعين الجهل أو البلادة أو كلاهما على الرضا وإشعار النفس الراحة الحيوانية، فلا يرى المرء فيما يحيط به ويضيق عليه، إلا عدلًا مقنعًا وضرورة لا مهرب منها، ولا خير في التبرم بها. وليس كذلك المثقف الذكي المشاعر الذي كأنام يحس الحياة بأعصابه العارية، مثل هذا لا يسع طوقه أو يغمض عينيه وينيم أعصابه حتى لا يرى ولا يحس ما في الدنيا من الظلم والغبن والخلط والفساد والتناقض. ومهما كانت وجوه الاختلاف ومواضع التباين بين عصرنا هذا -مثلًا- وعصر ابن الرومي، فإن مساوئ الحياة

ومتاعبها واحدة. وما كان سخط ابن الرومي على مظهر عارض أو عيب طارئ، فنحتاج أن نصف هنا ما عليه زمانه، ولكنه كان على ما يخلو منه عصر ولا يبرأ من مثله زمن. ومن الذي يقرأ قوله مثلًا:

أتـــراني دون الأولى بلغـــوا الآ ... مـــال مـــن شرطـــة ومـــن كتـــاب؟
وتجـــار مثـــل البهـــائم فـــازوا ... بـــالمنى في النفـــوس والأحبـــاب
أصـــبحوا يلعبـــون في ظـــل دهـــر ... ظـــاهرِ الـــسخف مـــثلهم لعـــاب
غـــير مغنـــين بالـــسيوف ولا الأقـــ ... ـــلام في مـــوطن غنـــاءَ ذبـــاب
ويظلـــون في المنـــاعم واللـــذات ... بـــين الكواعـــب الأتـــراب
لهـــم المـــسمعات مـــا يطـــرب الـــسا ... مـــع والطائفـــات بـــالأكواب
نَعَـــمٌ ألبـــستهم نِعـــمُ الله ... ظـــلالَ الغـــصون منهـــا الرطـــاب
حـــين لا يـــشكرونها وهـــي تنمـــى ... لا ولا يكفرونهـــا بارتقـــاب
كـــم لـــديهم للهـــوهم مـــن كعـــاب ... وعجـــوز شـــبيهة بالكعـــاب
خنـــدريس إذا تراخـــت مـــداها ... لبـــست جـــدة عـــلى الأحقـــاب
بنـــت كـــرم تـــديرها ذاتُ كـــرم ... موقـــد النحـــر مثمـــر الأعنـــاب
لـــذة الطعـــم في يـــدي لـــذة الملـــثم ... تـــدعو الهـــوى دعـــاء مجـــاب
يونـــق العـــين حـــسن مـــا في أكـــف ... ثـــم تـــسقى وحـــسن مـــا في رقـــاب
ومـــزاج الـــشراب إن حـــاولوا المـــز ... ج رضـــاب ياطيـــب ذاك الرضـــاب
مـــن جـــوار كـــأنهن جـــوار ... يتسلـــسلن مـــن ميـــاه عـــذاب
لـــو نـــرى القـــوم بيـــنهن لأجـــبرت ... صراحًـــا ولم تقـــل باكتـــساب

مـــن أنـــاس لا يرتـــضون عبيـــدًا وهـــم في مراتـــب الأربـــاب

وكـــذاك الـــدنيا الدنيـــة قـــدرًا تتـــصدى لألأم الخطـــاب

...إلخ. نقول: من الذي يقرأ هذه الأبيات -وإن كان ما حذفناه أضعاف ما أثبتناه- ولا يحس ما فيها من الصدق، ولا يذكر بها كثيرين ممن يرفلون في حلل السعادة، وهم لم يمدوا إليها يدًا، ولا سعت بهم في سبيل اكتسابها قدمٌ ولا استحقوها إلا بأن الحظ أورثهم إياها، وإن لم يكونوا خير الناس ولا أكفأهم ولا أفضلهم؟

وعسى من يعترض فيقول: إن هذا أشبه بأن يكون حسدًا لا سخطًا على جور الحظ، ودليل ذلك قوله بعد أبيات:

لم أكـــن دون مـــالكي هـــذه الأمـــلا ك لـــو أنـــصف الزمـــان المحـــابى

نقول: كلا! ليس هذا في شيء من الحسد، وإنما الذي يغلّط المعترض أن ابن الرومي يعرف قدر نفسه ولا يخفى عليه مكانه من الفضل والاستحقاق، وأن إحساسه بثقل القيود المحيطة به، وشعوره بعرقها وحزها، وإدراكه لمبلغ تعويقها، كل هذا قد أبرز «أنا» في شعره وفي حياته إلى المكان الأول من الواعية. ونظن أننا في غنى عن الإطالة في تبيين أن الذاتية إنما يبرزها إدراك حدودها والتصادم بما هو خارج عنها، إذا صح هذا التعبير. ومن الجلي أن الرجل الذي تتدفق حياته في مجرى لين لا يعوقه شيء، يختلف إحساسه بذاتيته عمن تعترضه العقبات في كل خطوة.

وقد كان ابن الرومي يريد أن يحيا حياة فنية؛ أي حياة تكون أقربَ إلى مُثُله العليا التي كان ينشدها، وأخلق بما يفهمه من وظيفة الشاعر وأليق بمنزلته، كما هي في نظره، فبغى ذلك وعجز عنه ولم يظفر به، وعزّه أن يكيف نفسه على مقتضى الظروف والأحوال التي تحيط به، ومن هنا حفل شعره بذكر نفسه، واكتظ بالمقابلة بين الرغبة

والإمكان، وبين الأمل والواقع.

ونرجع إلى القصيدة التي سقنا منها هذه الأبيات، فنقول: إن ابن الرومي بعد أن أفاض في صفة هؤلاء الناس وما ينعمون به استطرد إلى ذكر رجل رآه أحق بهذه النعم الجزيلة منهم وأسِف لما هو فيه ولعدم انتفاعه بفضله وعلمه، فقال:

كـــابن عـــمّارٍ الـــذي تركتـــه ... حمقـــاتُ الزمـــان كالمرتـــاب

مـــن فتـــى لـــو رايتـــه لـــرأت عينـــا ... ك علـــمًا وحكمـــة في ثيـــاب

بـــزه الـــدهر مـــا كـــسا النـــاس إلا ... مـــا عليـــه مـــن لحمـــه والإهـــاب

أو حـــلى ظرفـــه التـــي نحـــسته ... فلـــو اســـطاع باعهـــا بجـــراب

ســـوءة ســـوءة لـــصحبة دنيـــا ... أســـخطت مثلـــه مـــن الأصـــحاب

وليس ابن عمار هذا الذي عدا عليه الدهر وسلبه كل ما كسا الناس إلا اللحم والجلد -نقول: ليس هو بالذي كتبت إليه القصيدة بل ذاك غيره. فليس بابن الرومي حسدٌ، وإنما هو سخط على ظلم الحظوظ. ويؤكد ذلك، وأنه لا يقصد إلا إظهار ما في الدنيا من التخليط والغبن، إنحاؤه بعد ذلك في القصيدة عينها على الشرط وهم الأعوان الذين يوكل إليهم حفظ الأمن:

شرط خُوِّلـــوا عقائـــل بيـــضًا ... لا بأحـــسابهم بـــل الاكتـــساب

فـــإذا مـــا تعجـــب النـــاس قـــالوا ... هـــل يـــصيد الظبـــاء غـــير الكـــلاب؟

أصـــبحوا ذاهلـــين عـــن شـــجن النـــا ... س وإن كـــان حـــبلهم ذا اضـــطراب

في أمـــور وفي خمـــور وســـمو ... ر وفي قـــاقُم وفي ســـنجاب[٢٧]

---

[٢٧] السمور والقاقم -بضم القاف الثانية- والسنجاب: حيوان تتخذ فراؤها لنعومتها ونفاستها.

وتهاويـــل غـــير ذاك مـــن الـــرقم ... ومـــن ســـندس ومـــن ذربـــاب

في حبـــير منمـــنم وعبـــير ... وصـــحان فـــسيحة ورحـــاب

في ميـــادين يخـــترقن بـــساتين ... تمـــس الـــرءوس بالأهـــداب

لـيس ينفـك طيرهـا في اصـطخاب ... تحـت أظـلال أيكهـا واصـطحاب

عنـدهم كـل مـا اشـتهوه مـن الآ ... كـــال والأشربـــات والأشـــواب

والطروقـــات والمراكـــب والولـــ ... ـــدان مثـــل الـــشوادن الأسراب

واليلنجـــوج في المجـــامر والنـــد ... تـــرى نـــشره كمـــثل الـــضباب

ولا ينبغي أن يفوت القارئ وهو يقرأ هذه القصيدة وغيرها من مثيلاتها التي قد تتخذ دليلًا على ما انطوت عليه نفس ابن الرومي من الحسد أو الحقد -نقول: لا ينبغي أن يفوته أن الرجل كان دقيق الحس لطيف الشعور، وأنه كان من قوة الخيال بحيث يستطيع أن يحضر لذهنه ويتمثل أمامه ما يتخيله، ويجسده لنفسه كأنه واقع يحس ويلمس. ومن هنا تراه إذا وصف أفاض واسترسل، وتوخى الاستقصاء والتصفية ولم يدع شيئًا. ودفعه إلى الاسترسال وأغراه به، لا الحسد ولكن لطف الحس الذي يتناول أدق الأشياء وأخفاها، ومراح الخيال القوي الذي يجسد الصورة ويشعر صاحبه اللذة والمتعة المستفادتين من استقصاء الجوانب وإتمام النواحي. وقوة الخيال تغري أبدًا بمثل هذا وتبعث عليه، وقد يبدأ المرء غير معتزم إطالة، حتى إذا استولت عليه قوة ما يتخيل، سحره ذلك وتملكته روح الفن، فاندفع على غير قصد ومضى ولم يكن في حسبانه أن يمضي...

فليس ما به حسدًا ولكنه قوة الخيال ودقة الشعور وبروز الإحساس بالنفس، ومع ذلك هبه كان حسدًا وحقدًا، أو ما شئت فسمه، فماذا إذن؟ أليست هذه طبيعة

الناس؟ ألسنا قد خلقنا الله كذلك؟ فأي بأس في أن نكون كما برئنا؟

«وأين عن طينتنا نعدى؟».

كما يقول ابن الرومي. ونرد المسألة إلى أصلها الأول، فنقول: إنه لم يستطع أن يتكيف على مقتضى الأحوال التي يعيش في ظلها كما استطاع ويستطيع أكثر الناس، وأكثرهم بلا مراء أوساط عاديون. ومرد هذا العجز إلى حالة الأعصاب، ولا يخفى أن الدافع إلى التكيف هو الرغبة في سد حاجة عضوية أو اتقاء متعبة. ومعنى هذا بعبارة أخرى: أن المرء يسعى إلى التكيف ليحس الارتياح ولينفي أو ينقص المتاعب. فإذا لم يستطع ذلك ولم يقوَ عليه ولم ينل ما يناله من وَسِعهُ ذلك من الارتياح، ولم يتق ما اتقاه غيره من الإحساسات المنغصة. ولا مفر له بعد ذلك من أن تثقل وطأة الحياة والناس عليه، ومن هنا يأتي سخطه على الحياة، ونقمه على المجتمع، وتبرمه بأنظمته وأحواله، وقلة صبره على ما يسوءه مما يحتمله الأكثرون أو لا يلتفتون إليه، وسرعة تهيجه وغضبه على معاشريه والمحتكين به والذين يلتقي بهم في طريقه. ومن هنا أيضا تنشأ الأوهام وتصير هذه حقائق ثابتة لا سبيل إلى طردها أو التفطن إلى أنها ليست إلا مما يحدث في جوفه ويجري في نفسه لا مما تحدثه إرادة خارجية. ومن هنا كذلك تتولد فكرة الاضطهاد المتوهم والإشفاق من العالم الخارجي ومن ساكنيه وتوقع الأذى من ناحيتهما. وهذا كله ظاهر ينطق به شعر ابن الرومي.

(ب)

كان ابن الرومي في صباه فتى غرانقًا، كما يقولون، وسيم الطلعة، ممدود القوام، قدّ السيف، كما يقول:

أنا من خف واستدق فما يثقل أرضًا ولا يسد فضاء

خفيف الروح أنيس المحضر، مزهوًّا بملاحته مغرورًا بشبابه، مدفوعًا بحرارته وبقوة إحساسه إلى اغتنام فرصة الحياة، فلبس هذا البرد «لبس ابتذال» كما يقول، وأخلقه ولم يصنه ولا ادّخر منه شيئًا للكبر، وفعل بصباه فوق ما يفعل الناس في العادة. ولعلل الذي أعجزه عن القصد وعدل به عن الاعتدال، وقدةُ إحساسه مع الشباب من جهة، ووسامته من جهة أخرى، ولم يكن ابن الرومي يخفى عليه أنه جميل، وأن جماله يصبي النساء كما يصيبه حسنهن، ولا كان يتحرج أن يذكر ذلك في شعره ويباهي به، حتى بعد أن شَينت ديباجته، وتقوست قناته، فتراه مثلًا يقول وهو يستسقي عهد الشبيبة ويتلهف عليها:

ولو شهد الشبابُ إذن لراحت وإن بها -وعيشك- ضعف ما بي

فياغوثًا هناك بقيد ثأري إذا ما الثأر فات يد الطلاب!

وقد أورده ذلك ما يورد، فاغتال اللعبُ بأولى الدهر شِرَّتهُ «بأخرى حقود، والجرائم تحقد» وتضعضع كيانه ودب الكلال في عظامه وتوكأ على العصا:

ولذّت أحاديثي الرجال وأعرضت سليمي وريَّا عن حديثي ومهددا

ويُدِّل إعجاب الغواني تعجبًا فهن روان يعتبرن وصدد

وفقد شبابه بسرعة ولم يفقد لباناته وأوطاره فصار كما يقول:

شعر ميت لذي وطرٍ حيّ كنار الحرق ذات اللهيب

معه صبوة الفتى وعليه صرفة الشيخ فهو في تعذيب

وناهيك بهذا من عذاب! وقد يحب أن يتعزى فيقول:

لو يدوم الشبابُ مدة عمري لم تدم لي بشاشةُ الأوطار

ولكنه لم يستطع عزاء، ورزح شيبًا فشيبًا على مر الليالي، وانتابته الأسقام واصطلحت عليه العلل والأمراض، وصار كما يقول:

أنا ذاك الذي سقته يد السقم كئوسا من المرار رواء

ورأيت الحمام في الصور الشنع وكانت لولا القضاء قضاءا

ورماه الزمان في شقّة النفس فأصمى فؤاده إصماء

وابتلاه في ذاك بالعسر والوحشة حتى أمل منه البلاء

وثكلت الشباب بعد رضاع كان قبل الغذاء قدمًا غذاء

ولم تسلم حتى عيناه فقد كانتا كثيرًا ما ترمدان، وفي ذلك يقول لعبيد الله بن عبد الله:

شُغلت عنك بعوار أكابده لا بالملاهي ولا ماء العناقيد

قاسيت بعدك لا قاسيت مثلها نهارَ شكوى يباري ليل تسهيد

أمسي وأصبح في ظلماء من بصري فما نهاري من ليلي بمحدود

كأنني من كلا يومي وليلته في سرمد من ظلام الليل ممدود

إذا سمعت بذكر الشمس أسّفني فصعدت زفراتي أي تصعيد

لا يطمئن بجنبي لين مضطجع ... وما فراش أخي شكوى بممهود

أرعى النجوم وأني لي برعيتها ... وطرف عينيَّ في أسر وتقييد!

وإنَّ من يتمنى أن يؤاتيه ... رعي النجوم لمجهود المجاهيد

وضاقت الأرض بي طرًا بما رحبت ... فصار حظي منها مثل ملحودي

يعني بالملحود: القبر، وقد لازمته علته هذه شهرًا وتكررت ثم انتهى الأمر به إلى ضعف البصر كما يقول في دالية له يندب فيها شبابه:

وبورك طرفي فالشخوص حياله ... قرائن من أدنى مدى وهي فُرَّد

وله في قصيدة أخرى:

وأحدث نقصان القوى بين ناظري ... وسمعي وبين الشخص والصوت

وكنت إذا فوّقت للشخص لمحتي ... طوت دونه سهبًا من الأرض سربخا

فحالت صروف الدهر تنسخ جدتي ... وما أمليت من قبل إلا لتنسخا

وأخلق به أن يضعفه ويصيره إلى هذا المصير استهتارُه في صدر أيامه، وإدمانه على القراءة والاطلاع، فقد أحاط ابن الرومي بكل ما يحاط به من العلوم والمعارف والآداب في عصره، كما يدل على ذلك ما في شعره من الإشارات التي يحتاج المرء في فهمها إلى العلم بتاريخ العرب والفرس جميعًا والوقوف على كل ما كان لهم في كل باب. وقد ذكرنا لك أن أحد مؤرخي العرب قال عنه: إن الشعر كان أقل أدواته، ويقول ابن الرومي نفسه للقاسم بن عبيد الله:

إن أكن غير محسن كل ما تطـ ... ـلب إني لمحسن أجزاء

فمتى ما أردت طالبَ فحص ... كنتُ ممن يشارك الحكماء

ومتـــى مـــا أردت قـــارض شـــعر كنـــت ممـــن يـــساجل الـــشعراء
ومتـــى مـــا خطبـــت منـــي خطيبًـــا جـــل خطبـــي ففـــاق بي الخطبـــاء
ومتـــى حـــاول الرســـائلَ رســـلي بلغتنـــــي بلاغتـــــي البلغـــــاء

... إلخ. وليس بغريب بعد ذلك أن لا تسلم أعصابه، وأن تضطرب ويختل توازنها. ومهما يكن من الأمر فإن من المحقق أنه لم يكن سليم الأعصاب، وأن جهازه العصبي كله كان غير منتظم. يدل على ذلك موت أبنائه الثلاثة واحدًا بعد واحد، وفي غير السن التي يكون فيها الإهمال من أسباب الوفاة، ومراثيه لهم، بخاصة داليته في رثاء أوسطهم، لا يفوقها شيء في لغة العرب أو غيرها من اللغات التي اطلعنا على آدابها. وقد كان إلى جانب ذلك أحمق طياشًا سريع الغضب، وكان إحساسه الجنسي حادًّا ليس فيه شيء من الاعتدال البتة، وهنا لا يسعنا بكرهنا إلا أن نذكر أن معاصريه كانوا يستفزونه بقولهم عنه: إنه عنين، وكانت ثور ثائرته لذلك فيهجوهم أفحش الهجاء وأقذعه، وينكر التهمة، ويعنى بدفعها، ولكنه مع ذلك قال وهو يتحرق على شبيبته:

لهـف نفـسي عـلى القنـاع الـذي مـحّ وأعقبـــت منـــه شر عقيـــب
منـــع العـــين أن تقـــر وقـــرت عـــين واش بنـــا وعـــين رقيـــب
نفّـــر الحِلْـــمَ ثـــم ثنّـــى فأمـــسى خبّـــب العـــرس أيـــما تخبيـــب

والبيت الأخير هو الشاهد. والاعتراف فيه صريح لا يحتاج إلى تعليق، فكأن ما قيل عنه حق، أو هو إلى الحق أقرب وبه أشبه. ثم لا تنس أنه في هجائه قلما يفوته أن يبسط لسانه بسطًا شنيعًا في أعراض من يهجوهم من الرجال والنساء أحيائهم والأموات.

على أنه ليس أقطع في الدلالة على اضطراب أعصابه من طيرته، وكان مفرطًا فيها، وبلغ من غلوه أنه كان كلما أراد الخروج من البيت «يتعوّذ» بعد أن يلبس ثيابه ثم يمضي إلى الباب وفي يده المفتاح، ولكنه لا يديره فيه، بل ينظر أولًا من ثقب هناك في خشب الباب لأن له جارًا أحدب يتطير من رؤيته ويخشى أن يلقاه، فإذا رآه من الثقب عاد أدراجه، وخلع ثيابه، وأقام في بيته لا يبرحه، ولعل حاجته إلى الخروج شديدة، وكثيرًا ما كان يصبر على الجوع والظمأ هو ومن معه من الأولاد والنساء ويغلق الأبواب عليهم، ويؤثر ذلك على الخروج والتصرف بعد أن رأى أو سمع ما يتطير منه. وقد وصف جاره الأحدب أبدع وصف، أو رسمه على الحقيقة، فقال:

قصرت أخادعه وطال قذاله ... فكأنه متربصٌ أن يُصفعا

وكأنما صُفعت قفاه مرة ... وأحس ثانية لها فتجمعا

وكان إخوانه يعرفون ذلك منه ويعابثونه، فيبعثون إليه من يقرع بابه فإذا قيل له: من؟ قال: «مرة بن حنظلة» فيتشاءم ويستعيذ بالله ويقيم في بيته لا يبرحه، وكان علي بن سليمان الأخفش أجرأ الناس عليه بذلك. وبلغ من تطيره أنه كان يقلب الأسماء فيقول مثلًا: حسن مقلوبة على نحس. ويتشاءم إذا رأى نوى تمر في الطريق، ويقول: إن النوى الفراق، وإن هذا يشير بأن لا تمرّ، وإذا أصابه هو أو سواه شيء، عزاه إلى أمر من هذا القبيل، وحدث مرة أن صاحبًا له بعث إليه بغلام جميل يعرفه ابن الرومي ويطمئن إليه فجاء به فلما تخطى باب الصحن في دار صديقه عثر فانقطع شسع نعله فدخل مذعورًا وعلل هذه العثرة بأن الغلام به عاهة وهي قطع أنثييه. وأقام آخر مهرجانًا وكان من بين الجواري في ذلك اليوم صبية حولاء وأخرى في عينها نكتة، فتطير ابن الرومي. ثم إنه حدث بعد مدة أن سقطت ابنة الرجل من بعض السطوح فماتت، وأن جفا القاسمُ بن عبيد الله ابنَ الرومي فرد هاتين المصيبتين إلى الجاريتين، وكتب بذلك إلى والد الفتاة يقول:

أيهـا المُتَحِفِي بحُـول وعُـورٍ ... أيـن كانـت عنـك الوجـوه الحسان
فتحـك المهرجـان بـالحول والعـو ... ر أرانـا مـا أعقـب المهرجـان
كـان مـن ذاك فقـدُك ابنـك الحـر ... ة مـصبوغة بهـا الأكفـان
وجفـاني مؤمـل لي خليـل ... لـج منـه الجفـاء والهجـران

وأخذ في هذه القصيدة يثبت أن الطيرة معقولة، ويدفع قول من قال: إن النبي نهى عنها:

لا تـصدق عـن النبيـين إلا ... بحـديث يلـوح فيـه البيـان
خـبر الله أن مـشأمة كـا ... نـت لقـوم وخـبر القـرآن
أفـزورٌ الحـديث تقبـل أم مـا ... قالـه ذو الجـلال والفرقـان؟

وهجا مرة كاتبًا أسمه أبو طالب فحذر الناس من شؤمه:

أحذر أهل الأرض حدًّا ابن طالب ... فما زال مشحوذًا على من يصاحب
وقد جربت منه على آل مخلد ... تجارب ليست مثلهن تجارب
أزيرق مشئوم أحيمر قاشر ... لأصحابه نحس على القوم ثاقب
وهل أشبه المريخ إلا وفعله ... لفعل شبيه السوء شبه مقارب
أعوذ بعز الله من أن يضمني ... وإياه في الأرض البسيطة جانب
شبيهُ قدارٍ بل قدارٌ شبيهه ... وإن قيل كليم وإن قيل كاتب
وهل يتمارى الناس في شؤم كاتب ... لعينيه لون السيف والسيف قاضب؟
ويُدعى أبوه طالبًا وكفاكم ... به طيرة أن المنية طالب
ألا فاهربوا من طالب وابن طالب ... فمن طالب مثليهما طار هارب!

وكان ينفي عن نفسه أنه نحس ويهجو من يزعمه كذلك كما قال في ابن موسى:

أتـــأمر بـــالتقزز مـــن كلامـــي ... وذكـرك يُـصدي الـذهب الـسبيكا؟

زعمـــت بـــأنني نحـــس وإني ... مجيبـــك -معلنًـــا- لا أتقيكـــا

ويقول عن نفسه: إنه ميمون مبارك، كما فعل في همزية طويلة وجّه بها إلى القاسم بن عبيد الله الوزير:

كـــل شيء أراه منـــك بـــشير ... صـــدق الله هـــذه البـــشراء

وإذا مـــا مخـــابرُ النـــاس غابـــت ... عنـك فاستـشهد الوجـوهَ الوضـاء

إلى أن يقول مخاطبًا القاسم:

أجميـل بـك اطراحـي وقـد قـدّ ... مـت في رأيـك الجميـل رجـاء

ولي الطـائر الـسعيد الـذي كـا ... ن بريـــدًا بدولـــة زهـــراء

مـا تعرفـت مـذ تعيَّفـت طـيري ... غـير نعـماء ظـاهرت نعـماء

ثـم أدنيتنـي فـزادك يمنـى ... مـن أمـير مؤيـد إدنـاء

وتنـاولتني بـبر فبرتـك ... يـد الله ثـروة بيـضاء

وكـذا كلـما نويـتَ لمـولاك ... مزيـدًا أوتيتـه والهنـاء

... إلخ. ولقد طلب إليه في هذه القصيدة أن يتخذه «عوذة» لمجلسه فقال:

يـا لقـومي! أأثقـل الأرض شخـصي؟ ... أم شـكت مـن جفـاء خلقـي امتلاء؟

أنـا مـن خـف واستدق فـما يثقـل ... أرضًـا ولا يـسد فـضاء

إن أكـن عـاطلًا لـديك مـن الآ ... لات حاشـاك أن تجـور غبـاء!

فلأكــن «عــوذة» لمجلــسك المــو نــق أردُد عــين الــردى عميــاءا

ويقول في بائية له إنه يخاف:

أن يقــول الوشــاة بي إن شــؤمي جـر هـذا الـشخوص والإفـك حـوب

ولو وقف الأمر عند حد التطير لهان بعض الشيء، ولكنه كان يكابد ما هو أدهى، ذلك أنه كان مصابًا بتوهم الاضطهاد واقعًا عليه من الناس ومن الطبيعة نفسها. فأما من الناس فلا نحتاج أن نورد من شعره شيئًا فقد عرف القراء أنه حافل بها ينم على ذلك، وأما من الطبيعة فقد يكون مما له دلالة، قوله في بائيته التي مدح بها أحمد بن ثوابة:

وصـبري عـلى الإقتـار أيـسرُ محمـلًا عـليَّ مـن التغريـر بعـد التجـارب

لقيـت مـن الـبر التبـاريح بعـد مـا لقيـت مـن البحـر ابيـضاضَ الـذوائب

سُـقيت عـلى ريٍّ بـه ألـف مطـرة شُـغفت لبغـضيها بحـب المجـادب

ولم أُسـقها بـل سـاقها لمكيـدتي تحـامق دهـر جـدّ بي كالملاعـب

إلى الله أشـكو سـخفَ دهـري فإنـه يعـابثني مـذ كنـت غـير مطايـب

أبى أن يُغيث الأرض حتى إذا ارتمت بـرحلي أتاهـا بـالغيوث الـسواكب

سقى الأرض لأجلي فأضحت مزلـة تمايـل صـاحبها تمايـلَ شـارب

لتعويـق سـيري أو دحـوض مطيتـي وإخـصاب مـزور عـن المجـد ناكـب

ولعل ذلك راجع إلى اقتداره على التشخيص وإلباس المعاني صور الأحياء، ولكنا نعود فنسأل لماذا يعد نفسه مقصودًا بالذات؟

(ج)

الطفل، إلى حد كبير، صورة مصغرة من الجنس الإنساني يمر به، باختصار، ما مرَّ بجنسه من الأطوار، ويتنقل شيئًا فشيئًا من الذاتية غير المدركة إلى الذاتية المدركة، ثم إلى التفطن لما هو خارج عنها. أول ما يحسه هو ما يجري في جوفه، كما تنم على ذلك حركاته التي يسعه أن يقوم بها، وصيحاته -وهي أيضًا حركات عضلية- وكما يدل على ذلك ما يبديه من الشعور بالحالات العامة، من مثل الجوع والظمأ وما إليهما. هذا هو الطور الأول، وهو طور ليس فيه وعي. فلا المخ يهيمن على المراكز الدنيا، ولا ما يتولاه الحس يمكن ترتيبه وتوليد فكرة منه، ولا للإرادة دخل في الحركات. ثم يأتي طور آخر تقوى فيه المراكز العليا على الأيام، فيعنى الطفل بما يأخذه حسه ويكوِّن من ذلك فكرة إلى حد ما، وتصدر عنه حركات يبغي بها غاية. وهذا الدور هو مولد الإرادة، وبه يرتبط الشعور بالذاتية والتنبه إلى أنه فرد، غير أنه حتى في هذا الدور تظل واعيته غاصةً على الأكثر بحالات نفسه، ويبقى هو أكثر اشتغالًا بما يجري في جوفه منه بالعالم الخارجي، فهو مثال بارز للأنانية إذ كان لا يكترث إلا لما له اتصال مباشر بنفسه وحوائجه وميوله، ثم يترقى فينضج رأيه في علاقته بغيره وبالطبيعة، ويتزن إحساسه بذلك، وتتضاءل عنايته بما يجري في كيانه العضوي، إلا إذا ألحت عليه ضرورة، ويعظم التفاته إلى ما يتناوله حسه، فتتراجع ذاتيته إلى ما وراء ما عداها، وتملأ صورة العالم الخارجي أكثر جوانب الواعية. ويصبح الطفل رجلًا من الأوساط العاديين الذين هم السواد الأعظم من الناس الذين تتمثل فيهم أسمى درجات الذاتية باشتمالها على ما عداها؛ أي بإدراك العالم وبقهر الأنانية؛ أي بالانتقال إلى ما يسمونه «الألترويزم» وهو الاهتمام بالغير بدافع من العطف أو سواه مما يجري مجراه، لا رضاء لحاجة جسمية مُلحة، ولا إشباعًا لعضو من جوع وقتي، كما هو

الشأن في الجوع وفي الغريزة التناسيلة. ومن الواضح أنه لا سبيل إلى الحياة المدنية العادية بغير ذلك؛ أي بغير الألترويزم. وكيف تكون الحياة الإنسانية إذا كان الناس لا يستطيعون أن يحضروا لأنفسهم إحساسات سواهم وأن يمثلوها لخواطرهم؟ أيشعر بالعطف من لا يسعه أن يتصور آلام الناس؟ أيكترث للناس مخلوق لا يقوى على تخيل الأثر الذي يحدثه ما يعمل أو ما يُغفل أن يعمل؟ هذا ولا بد للمرء أن يدفع عن نفسه سوء فعل القوات الطبيعية، وأن يستخدمها لخيره ولفائدته، وذلك ما لا سبيل إليه ما لم يعرف هذه القوات معرفتها، وما لم يستطع أن يتصور فعلها. وهذا كله يستوجب من المرء أن يكون أكثر التفاتًا إلى ما عداه. وذلك مظهر الرجل العادي في الأغلب والأعم عنايته بما يقع في نفسه من الخارج، أشد وأعظم استغراقًا له من عنايته بما يأتي من ناحية نفسه، وواعيته أغص بصور العالم الخارجي منها بنشاط كيانه وأعضائه، وليس له من الذاتية أكثر من القدر اللازم للاحتفاظ بفرديته. وليس كذلك الرجل الشاذ الذي يخلق على غير طراز الأوساط، والذي يظل طول عمره أشبه بالطفل من حيث علاقة الذاتية بما عداها. ومن هنا تكون المبالغة في تقدير العمل الشخصي والغلو في أهميته. وما من شك -مثلًا- في أن الأدب من لوازم الحياة الإنسانية، ولكن تاريخ العالم لا يدور على محوره وحده، وهب الأمر كذلك فهو على التحقيق ليس رهنًا بشعر شاعر واحد معين. ولا ريب في أن كل امرئ يعتز بعمله ويكبره، ولكن الفرق بين الرجل العادي وبين الشاذ، هو أن الأول لا يغالي بعمله ولا يعدو به قدره وأن الثاني يجاوز الحد المعقول، ولا يستطيع أن يتصور أن واحدًا من الناس قد يخالفه في ذلك ولا يرى رأيه فيه، فإن فعل، فهو خصم وعدو.

وقد كان ابن الرومي لسوء حظه -أو لحسنه ولحسن حظنا على الأصح- واحدًا من هؤلاء الشواذ، فنه الشعر، فالشعر عنده أحق ما في الحياة بالعناية والإكبار، وقائله أولى الناس بأن توفر له أسباب الحياة التي يتطلبها فنه. وهو (ابن الرومي) بصفة

خاصة أحق مخلوق أو شاعر بذلك، فمن حقه على الناس أن يرزقوه إذا لم يستخدموه:

أأحييتني بالأمس ثم تميتني ... برفضي وإقصائي وحقي أن أدنى!
ولو أنني أحييتُ ميتًا عشقته ... بحسن الذي آثرت فيه من الحسنى
ألا يعشق المفضالُ ميتًا أعاشه ... وأجناه من معروفه الحلو من أجنى؟
أذو آلة؟ فاستخدموني لآلتي ... بقوتي أولًا، فارزقوني مع الزمنى!

وهي صرخة مؤلمة! ثم يجب بعد ذلك؛ أي بعد أن يوفر له رزقه ولو من غير طريق الاكتساب، أن يمكن من السماع لأن أذنه حساسة واعية تحن إلى السماع الجميل، ومن إرضاء حواسه الأخرى أيضًا لأنها قوية مُلحة في طلب الإرضاء:

أدنِ شخصي إذا شدت لك بستا ... نُ وغنت غناءها غناء
فاستثارت من اللحود المغنين ... فأضحى أمواتهم أحياء
يا لإحضارها مع ابن سريج ... معبدًا والغريض والميلاء
وتلتها «عجائب» فتغنت ... مشبهات اسمها صُيابا وِلاء[٢٨]
فحكت هذه وتلك يمينيك ... إذا ما تبارتا إعطاء
ذا ولا تنسني إذا نشر البستان ... أصناف وشبه وتراءى
وحكتك الرياض في الحسن والطيب ... وإن كان ذاك منها اعتداء
وتغنى القمريُّ فيها أخاه ... وأجابت مُكاءةٌ مكاء
وأبدَّتك لحظها قضب النـ ... ـجس ميلًا إليك تحكي النساء

---

[٢٨] معبد وغريض مغنيان، والميلاء وعجاب مغنيتان معاصرتان لبستان.

فجـــــالٌ لمنظـــــر وثنــــــاء ... لــــشم يحكــــي ثنــــاك ذكـــاء
وَاهْـوَ قـربي إذا شرعـت عـلى دجلـة ... في ظــــل ليلـــــة قمـــــراء
وأجـاب المـلاح في بطنهـا المـلاح ... يحتـــث بالــــسفين الحـــداء
واذكـــرني إذا اســـتثرت ســـحابًا ... ذات يـــوم عـــشية أو ضـــحاء
فتعالـــت فـــوارة تحـــسد الخـــضراء ... إغـــذاق مائهـــا الغـــبراء

..إلخ. ولماذا؟

حـسنُ علمـي إذ ذاك بالحـسن المـو ... قـع ممـا يـروي القلـوب الظـماء
وارتفــاعي عــن الجفــاة المــسوّين ... بـــشدو المجيـــدة الـــضوضاء
موجـــبٌ أن أكـــون أدنـــى جلـــيس ... لـــك أعلـــو بحقـــي الجلـــساء

وليس هذا، على صحته، بالسبب الموجب على القاسم أن يجعله أدنى جلسائه! لأن القاسم قد يكون كهؤلاء الجفاة الذين لا يميزون بين الضوضاء والغناء الجيد، وقد لا يحب أن يؤلم نفسه بحضور من هو أفطن منه وأدق حسًّا.

وقد يحتاج أن يتزوج فيخطب لنفسه فتاة ويعين يوم الزفاف فيطالب صديقًا له بأن يعينه على زفافها:

يـــا ســـميَّ الخليـــل إيـــاك أدعـــو ... دعـــوة يممـــت ســـميعًا مجيبـــا
أَمَـــةٌ مـــن إمـــاء فـــضلك أجمعـــت ... علينقلهـــــــا إليَّ قريبـــــــا

وما ذنب صاحبه إبراهيم هذا؟ قال: لأني

مـــا تزوجتهـــا عـــلى غـــير تأميلـــك ... فـــانظر أجـــائز أن أخيبـــا؟

نقول: نعم جائز! وقد كانت له أرض كما قلنا وكان عليه أن يؤدي عنها الخراج، فكتب إلى وهب بن سليمان يستعفيه من ذلك:

غير أن ليس في خراجي وحدي ... ما بأعلاقه يسوغ الشراب
لك في مكثري الرعية دوني ... حلبٌ كيف شئت بل أحلاب

ولكن غيره قد يستعفون مثله فماذا يكون العمل؟

ومتى رام رائم كخصوصي ... قلت ما كل دعوة تستجاب
بل لقوم وسائل يستحقو ... ن إذا ما دعوا بها أن يجابوا
منهم معشر ومنهم أناس ... فضلتهم بفضلها الألباب
وأديبٌ له ثناء بما يُسـ ... ـدي إليه وللثناء ثواب
ولبعض الرجال فضل على بعض ... بما نَفَّلتهم الآداب
ولقد جاء في الرواية والآ ... ثار أنا على العقول نُثاب

وهكذا. فما ثم داعٍ للإطالة فإنه هو القائل:

حق الأديب لازم لذي الكرم ... فإن تناسى حقه فقد ظلم
أما رآه لم يزل أعنى الخدم ... بالأدب الشعري طورًا والحكم
مستمليًا من عرب ومن عجم ... منحرفًا عن كل كسب يُغتنم؟

كذلك لم يكن بينه وبين الناس ما ينبغي من التعاطف بل حتى ما يجعل الحياة ممكنة. وقد لا يكون هذا ذنبه إلا من ناحية أعصابه المضطربة، وذلك ما لا حيلة له فيه. أما الناس فواضح من شعره أنهم لم يكونوا يقدرون حاجات نفسه، أو يدركون مبلغ إلحاحها عليه، وعذره فيها واضطراره إليها، فلم يستقم الأمر بينه وبينهم. ومهما

يكن من الأمر فهذا هو الواقع على كل حال. وما أكثر ما ترى في شعره مثل قوله أو قريبًا منه:

حلفت بمن لو شاء سد مفاقري ... بما لي فيه عن ذوي اللؤم مرغب

لما آفتي شعر إليهم مبغض ... ولكنه منعٌ إليهم محبب

وأعجب منهم معشر ليس فيهم ... بشعري ولا شيء من الشعر معجب

براذينُ ألهاها قديمًا شعيرها ... عن الشعر تستوفي القديم وتركب

أو قوله:

أنا شاكٍ إليك بعض ثقاتي ... فافهم اللحنَ فهو كالإعراب

لي صديق إذا رأى لي طعامًا ... لم يكد أن يجود لي بالشراب

فإذا ما رآهما لي جميعًا ... كفياني لديه لبس الثياب

فمتى ما رأى الثلاثة عندي ... فهي حسبي لديه من آرابي

فيَّ طبعٌ ملائكيّ لديه ... عازف صادف عن الإطراب

أو حمارية فمقدار حظي ... شعبةٌ عنده بلا أتعاب

ليس ينفك شاهدًا لي بفهم ... وبيان وحكمة وصواب

ومتى كان فتح باب من الله ... توقعت منه إغلاق باب

فما ظنك بغير الثقاة؟ وهذا يدعونا إلى الكلام على هجاء ابن الرومي.

(٤)
السخر
(أ)

كلمة في السخر أولًا..

ما هو السخر، إذا ذهبنا نعتبره من فنون الأدب؟ إن هذه الوجهة هي بالبداهة كل ما يعنينا. وهو بهذا الاعتبار، العبارة -بما يناسب ذلك من الكلام- عما يثيره المضحك أو غير اللائق، من الشعور بالتسلي أو التقزز، على أن تكون الفكاهة عنصرًا بارزًا والكلام مفرغًا في قالب أدبي.

ولسنا نظن أننا أحطنا في هذا التعريف بكل ما ينبغي أن يُحاط به، أو أقمنا كل المعالم والحدود. ولكنه على هذا كافٍ في رأينا للدلالة على المراد، فهو حسبنا إلى مدى بعيد. فالشاعر حين يسخر، يتناول بُعدَ ما بين الأشياء والطبيعة، ويركض في حلبة يتقابل عند طرفيها الواقع من ناحية ومُثُلُ الكمال من ناحية أخرى. وقد يفعل ذلك جادًّا أو متفكهًا مداعبًا؛ أي أنه قد يستوحي إرادته ومشاعره أو يستملي عقله. فإن كانت الأولى فهو هاجٍ منتقم، وإن كانت الثانية فهو ساخر يركب ما بدا له بالدعابة. وإلى هنا لا يكون هذا أو ذاك أدبًا أو من الأدب في شيء. وعسى من يخونه الصبر فيسأل: وكيف يكون هذا كذلك؟ أتريد أن تخرج من الأدب كل ما قاله العرب مثلًا في باب الهجاء والتهكم؟ ألا يعد من الشعر ما نظمه في هذه المعاني جرير والفرزدق أو دعبل وبشار وابن الرومي والمتنبي مثلًا؟ إذًا فماذا أبقيت؟ نقول: كلا يا سيدي القارئ! هوّن على نفسك! فما نقصد إلى شيء مما قام في وهمك. وما أردنا سوى أن نقول: إن

الشعر ليس أداة انتقام ولا هو عبث يتلهى به الفارغون من قالته وقرائه. ومن الصعب على المرء أن لا يفسد الصورة الشعرية حين يهجو جادًّا مستطيلًا، وأن لا يفجع الشعرَ في حرية الحركة، وهي من أغلى ما فيه ومن ألزم لوازمه. وهو حين يتفكه كثيرًا ما يخطئه روح الشعر وتذاد ألحاظه عن اللانهاية.. فالأمر معضل كما ترى فكيف نشير؟ نشير يا سيدي القارئ بهذا: بأن تخلع في الحالة الأولى على كلامك خلعة من الجلال، وبأن تُضفي عليه في الحالة الثانية حلة من الجمال.

وأحسبك ستقول:

هـــذا كـــلام لـــه خبـــئ معنـــاه ليـــست لنـــا عقـــول

فنقول: أي نعم والله يا صاحبي! ولكن المسألة أبسط مما تظن فلا ترع! وما عليك إلا أن تنفي عن ذاكرتك -إذا استطعت- ما فيها من «ضوضاء» الهجاء القارص والطعن المقذع، وما كوّنته على أثر هذه الجلبة من الرأي الذي لعله عنَّ ذلك بسوء الاتفاق. ثم هلمَّ نتفاهم: وما أيسر ذلك إذا أخليت رأسك من هذه الضوضاء، وتفضلت فتناولت رأيك ووضعته إلى جانبك لحظة. وفي وسعك أن ترده إلى مكانه من دماغك إذا لم يعجبك كلامنا!

نحن متفقان -فيما أظن- على أن السخر على العموم مبعثه مقابلة الواقع باعتبار ما فيه من النقص، بصورة الكمال باعتبارها أسمى الحالات التي ينبغي أن يكون عليها الواقع. كثيرًا ما تكون صورةُ هذا الكمال غامضة ملتاثة، بل لعلها لا تعدو هذا الغموض أبدًا، ولا تخلص من ظلامه قط إلى نور الوضوح والبيان. وعلى أنه يكفي الإحساس العام بها؛ ولما كان المرء قلما يتهيأ له أو لا يتهيأ له قط أن يتمثل صور الكمال واضحة مشرقة، فأكثر ما يسعه هو أن يلفتنا إليها ويوقظ في نفوسنا مثل إحساسه العام بها. وهذا هو ما ينبغي أن يجعله وكده؛ أي أن ينبه فينا هذا الإحساس

الذي لا يستطيع أن يصوره لنا على وجه الدقة. وإلى هنا نرى أن كلامنا أوضح من أن نحتاج معه إلى إفاضة فلنخط خطوة أخرى لها أيضًا ما بعدها.

ينفر المرء من شيء واقع أو يتقزز أو يشمئز منه أو ما شئت غير ذلك من هذه المترادفات التي لا أحسن أن أرصها رصًّا، فتثور عليه نفسه. ولكن لماذا؟ ألأن الشيء في ذاته، ومن حيث هو، من شأنه أن يبعث في النفس الإحساس بالتقزز ويثيرها عليه! لا نحسب أحدًا سيذهب إلى ذلك. وشبيه بهذا أن يقول قائل: إن كلمة معينة من الكلمات رديئة، وإن حروفها التي تتألف منها ثقيلة بغيضة، وإنها كيفما كانت، وفي أي كلام وردت، لا يكون إلا قبيحة كريهة الورود على الأذن، وهو ما لا نظن عاقلًا يقول بمثله. فالشيء في ذاته لا يبعث على سخط أو رضا، ولا يكون غرضًا لذم أو حمد، وإنما يكون هذا أو ذاك حين تقيسه إلى المثل العليا، وتجريه على صورها، وتقرنه بها.

وهنا محل التنبيه إلى خطأ كثيرًا ما يؤدي إلى الخلط. ذلك أن المرء قد تلج به حاجة جسمه أو نفسه، ويلقى شيئًا مما هو كائن عقبة في سبيل إرضائها فيسخط، ولكن لا على العراقيل التي تأخذ على رغبته مذهبها، بل على الجماعة، وربما تجاوزها إلى الجنس الإنساني كله، وإلى الحياة على الإطلاق، لما يتعلق به وهمه من أن مصادر هذا الإحساس عامة، ولما يعزوه إليه من البواعث الأدبية السامية. وهذا هو دأب الضعاف والمتخلفين. على أن غيرهم قد لا يسلمون من هذا الخلط، لأن القدرة على تحريك النفوس تخدعهم وتغرهم. ومهما يكن من الأمر فإن هناك فرقًا بين أن يؤثر الشاعر بإهاجة العواطف ويترك القلب تستغرقه الإحساسات المؤلمة، وبين أن يثير في النفس الإحساس بالاستقلال الأدبي إحساسًا يبقى العقل حرًّا في اللجاجة فيه على الرغم من الاهتياج. ولا عبرة بسمو الموضوع أو ضعته بضخامته أو ضؤولته،

وإنما العبرة بالقاعدة التي يضع الشاعر عليها الأمر الواقع، وبقدرته على تهيئة النفوس لقبول ما يُلقى إليها وينفث فيها، وبالمنزلة التي يشرف منها على غرضه. وما دامت هذه ساميةً رفيعة فلا اعتداد بعد ذلك بالموضوع. وبعبارة أخرى يكفي أن يكون لنظرة الشاعر حظٌّ كبير من الجلال والسمو. ومن العسير التمثيل لذلك من الشعر العربي، ولكنا مع ذلك نحيل القارئ على جيمية ابن الرومي التي قالها لما قُتل يحيى بن عمر بن حسين بن يزيد بن علي، ومطلعها:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

وفيها يصف طغيان العباسيين وضلالهم في الفتك بالعلويين واستهتاكهم وضعفهم إلى حد استباح لنفسه معه أن يقول «لرجالهم»:

فلا تجلسوا وسط المجالس «حُسرا» ولا تركبوا إلا ركائب «تحدج»!

فإنه في هذه القصيدة يشرف على ضعةٍ من مرقب عالٍ يرفع إليه القارئ بقوة روحه وسمو نظرته، وهو يشعرك بمطلع القصيدة أن قتل أبي الحسين هذا قد أثار مسألة تقتضي الفصل، ويرسم لك طريقي الضلال والواجب، ويهيج إحساسك الأدبي بالتمرد على الانتكاس الخلقي الذي أنطقه بهذه القصيدة. ولولا أن المقام يضيق عن ذلك لأوردنا القصيدة كلها على طولها ولتناولناها بيتًا بيتًا.

وغير منكور أن الموضوع الجدي يسمو بنفسه ويساعد الشاعر الذي يتناوله. وليس الحال كذلك حين يعالج الشاعر الفكاهة. وأنت حين تجدُّ قد لا يشق عليك أن تحلق، ولكنك حين تجنح إلى الفكاهة لا يعود من السهل أن تحافظ على الاستواء الواجب، وأن تتقي الهبوط، وتجنب الإهاجة، وتكبح عواطفك، وترخي العنان لعقلك، وأن تشيع الجمال في موضوعك لتسد نقصه وتملأ فراغه وتعوض تفهه، ومن هنا قالوا: إن غاية الفكاهة هي أقصى ما هو مقدور للإنسان. يعنون بذلك

التحرر من تأثير العواطف العنيفة، والقدرة على التأمل في سكون واطمئنان، والنظر إلى ما يقع، لا إلى القدر أو الحظ أو الاتفاق، ومنح الحماقات والسخافات والمتناقضات ابتسامة رضية لا عبرة متحدرة، وكبح جماح الغضب عند شهود لؤم الإنسان ومعاناته. ولعل خير من يذكر على سبيل التمثيل في هذا الباب هو «هينه» الألماني. أنقول الألماني؟ كلا والله! فما نستأثر بهينه أمة ولا زمان ولا مكان! ولقد طلق ألمانيا ولم يصر فرنسيًّا، ونبذ اليهودية ولكنه لم يصبح مسيحيًّا، وزعمه «تيك» في قصة رمزية شيطانًا قزمًا متقلبًا مسيئًا! ولكن أغانيه أحلى وأعذب، واستيلاءه على ينابيع الضحك والبكاء أعظم مما شاء «تيك» أن يعترف.

ولا ينبغي للقارئ أن يتوهم مما أسلفنا الكلام عليه أن العبث جائز في الشعر لأن الشاعر يتناول المضحكات أحيانًا ويمزح ويسخر ويركب الأشياء والناس بالهزل، فإن هزله أبدًا مبطن بالجد، وهو لا يقصد إلى الهزل في ذاته حين يريك الهزل ويصوره لك، ولقد كان «لوسيان» و«أرستوفانيز» يتعقبان سقراط بالنكات القاسية ولم يكن غرضهما أن يمزحا فحسب، بل كانا يريدان أن ينتقما للحقيقة من السفسطة في رأيهما، وأن يبرزا إلى المكان الأول ما يلقي به الناس وراء ظهورهم من المثل العليا. ثم ما أجمل وأبهر الصور الهزلية التي رسمها قلم «سرفانتس» في قصة دون كيشوت! وفولتير؟ ذلك الذي لم يشهد العالم ساخرًا مثله، ذلك الذي كان سخره عاملًا كبيرًا في إحداث انقلاب ضخم لا يزال أثره محسوسًا إلى هذه الساعة! من الذي يفوق هذا الاستاذ ويبذه؟ من الذي يشبهه في أسلوبه؟ إن الحكم على فولتير حكمًا فنيًّا بحتًا يستدعي قبل كل شيء تجريده إذا أمكن ذلك من صفته القومية الحادة، إذ بغير ذلك لا يستقيم الحكم عليه ولا يتأتى إنصافه وإنصاف الأدب معه، وما من شك في أن صدق سريرته وبساطة طبيعته تلمحان هنا وهاهنا في خارجيّاته، وتحركان في نفس القارئ العواطف الشعرية حين يتوخى البساطة في تمثيل الطبيعة وتصويرها، كما

فعل في «الأنجيني» أو حين يبغيها ليقتص لها كما فعل في (الكانديد) وغيرها. وهو فيما عدا ذلك يسلينا ويسرنا بملحه الطريفة ولكن.. نعم ولكن.. لا يصل إلى قلوبنا. وهذا قول قد يسخط الكثيرين من المعجبين به مثلنا، والمغالين بقدره غيرنا. غير أنه قد يُسمح لنا أن نتهجم قليلًا! ومن الذي لا يتهجم؟ من الذي يلزم حده أبدًا فلا يتقدم عنه ولا يتأخر؟ أين في الناس من لا يتطاول به الغرور؟ وإن لنا لحظًا من الغرور قسمه الله لنا فلنقتحم إذًا!! ولنقل: إنا لا نلمح المقدار الكافي من الجد وراء تهكمه في كثير من المواطن. ولن يفوتك أبدًا أن تلتقي بذكائه وبراعته وحذقه، ولكنه يعيبك أن تهتدي إلى إحساسه، وأن تطَّلع على شعوره وعواطفه، وأن تلمس قلبه. وهو دائم الحركة، لا يفتر ولا بكل، غير أنه ليس هناك شيء ثابت وراء هذه الحركة المتواصلة، أو نجم قطبي يصمد إليه ويتجه نحوه، وقد أسبغ على كتاباته مئات من الكسي، وصبها في أشكال لا يأخذها حصر، ولم يوفق إلى شكل واحد يضع عليه طابع قلبه ويسمه بميسم نفسه. فهو غني الذكاء فقير القلب، خصب المادة سخي المظهر، ولكنه كان يمشي في هذه الدنيا، ويخرج فيها من درب إلى درب، ويعرج يمينًا وشمالًا، وينثر براعاته في كل مكان، ويسح بملحه وطرائفه سحًّا، وفي جوفه صحراء لا تؤنس وحشتها واحة واحدة!

(ب)

من الصعب على الناقد الذي تأخر به الزمن مثلنا أن يُجري أحكامَ ما يأخذ به من الآراء في الأدب عامة والشعر خاصة، على قوم طوتهم الأيام بخيرهم وشرهم، وتغيرت الدنيا بعدهم، فلو أُنشروا لأنكروها وما عروفها. لأن الناقد لا يأمن، إذا هو فعل ذلك، أن لا يظلم أولئك الأقوام حتى حين يريد إنصافهم وتتبين أقدارهم. ومن أجل ذلك يخيل لنا بعد الذي قلناه عن السخر أننا نوشك أن نظلم ابن الرومي، وأن نحمله جريرة أحوال لم تكن مما جنى، وظروف لا يد له فيها ولا حكم عليها. أو على الأقل هذا ما نرجح أن سيعتقده عامةُ القراء من عارفي هذا الشاعر او السامعين به. ولكنا مع ذلك سننصفه من حيث يبدو أننا خفنا عليه وغمطناه.

لم يكن الشعر على عهد ابن الرومي فنًّا يُزاول لذاته؛ أي للترفيه عن النفس وإدخال السرور عليها من طريق الجمال. ومعلوم أن الباعث الأول على الشعر هو حدة إحساس المرء ودقة شعوره، وذلك لأن كل مؤثر قوي يثير في المرء حركات تتعلق بها المدارك في صورة عاطفة أو انفعال نفسي لا يزال يبغي مخرجًا ويلتمس متنفسًا حتى يصيبه في حركة عضلية أو نحو ذلك، فإذا كان المرء من أوساط الناس العاديين كان ذلك حسبه للترجمة عن عواطفه وانفعالاته، وصار قصاراه أن يبكي إذا حزن، وأن يضحك إذا فرح، وأن يثور ويتوعد إذا غضب، حتى تفنى العاطفة نفسها ثم يثوب إلى نفسه. ولكن دقيق الشعور لا يكفيه هذا المتنفس لأنه أحس من غيره بما تطلع عليه نفسه من الظواهر، وأعمق مع دقة الحس شعورًا. وليس يخفى أن دقة الإحساس وعمق الشعور يطيلان أجل العاطفة، ويمدان في عمرها، ويفسحان في مدتها وبقائها، فإذا استولت عليه عاطفة لم تزل تجيش وتضطرم حتى تقر وتنتظم، ثم

تتحول فكرة قاهرة تظل تجاذبه وتدافعه حتى ينفس عنها عمل يناسبها -هذا هو الفن لذاته فحسب. ولو أنك أردت أن تجد لها ضريبًا في عصرنا يقرب إليك المسألة ويصورها -على قدر الإمكان- لكان بك أن تبغيه بين جدران المدارس. ولقد قدمنا لك في مقال سابق أن خصائص الآباء تظهر في الطفل، وإنه يعيد في شخصه تاريخ التطور النوعي كله. فاذهب إلى المدرسة إذن فماذا تجد؟ تجد هناك في ذلك الركن من «الفصل» -كما يسمون مكان الاجتماع لتلقي الدروس- تلميذًا مكبًّا على غلاف الكتاب، وفي يده قلم يرسم به خطوطًا قليلة ساذجة يطالعك منها شيء كالوجه، وأظهر ما فيها شاربان ضخمان طويلان مفتولان لا نسبة بينهما وبين بقية الصورة، إذا جاز أن نسمي هذا التخطيط صورة. فماذا تظنه يعني؟ ما هو الغرض الذي صار أمثل في خاطره وأحضر في ذهنه حتى فعل ذلك؟ لا ندري! ولعله هو أيضًا لا يدري على وجه الدقة. غير أن الأرجح في الرأي والأقرب إلى الاحتمال أن يكون قد قصد أن يرمز إلى الرجولة التي يتطلع إليها ويحلم بها، فزاد في الشاربين وبالغ فيهما على نسبة عكسية لتجرده منهما، إذ هو لا يزال أمرد لم يطرّ له شارب ولا نبت في عذاريه شعر. والشوارب أدل على الفتوة، وأدنى إلى معاني القوة من اللحية. وتلميذنا إنما يريد أن يرمز إلى سن القوة والفحولة التي تأنس إلى الشوارب ولا تُطيق اللحي التي لا يطمئن إليها المرء إلا مع فتور الحيوية.

وثم في مكان آخر من «الفصل» تلميذ ثانٍ يحفر على غطاء «درجه» يدا ممسكة عصا ضخمة، فماذا ترى جرى بباله حين حفر خطوط هذه وتلك بمبراته؟ لعل معلمه أذاقه طعمَ العصا فخامره الإحساس بها، ولم تزل تدور في نفسه رهبة هذا السلطان الذي يدل عليه وقع العصا، فأجرى مبراته على الخشب بهذه الخطوط التي تمثل له المظهر المؤلم البارز لهذا السلطان. وهناك في مكان ثالث صبي آخر يدنو منه المعلم فتتحرك يده في خفة وسرعة لتخفي في جيبه ورقة، ويلمحه المعلم فينتزعها منه فإذا

فيها صورة أنف كبير كخرطوم الفيل؟ فماذا يا تُرى في هذا أيضا؟ ماذا يريد فتانا بهذا الأنف الذي كأنما عناه ابن الرومي بقوله:

حملت أنفًا يراه الناس كلهم ... من رأس ميل عيانًا لا بمقياس!

لو شئت كسبًا به صادفت مكتسبًا ... أو انتصارًا مضى كالسيف والفاس!

لعل هذا الأنف رمزٌ لمعلم يتضاحك به التلاميذ، ولا يقوى هو على حكمهم لضعف فيه أو قلة حزم أو لأن شكل أنفه على وجهه أغرى للتلاميذ بالضحك من أن تجدي معهم شدة أو حيلة!

وثم في مكان آخر من «الفصل» أيضًا، تلميذ ناهز الثالثة أو الرابعة عشرة يتناول المدرس كشكوله -كراسة الأعمال اليومية- فإذا هو قد ملأه بما يشبه أن يكون صور أجسام عارية: في صفحة صورة فتاة أظهر ما فيها شعرها المنسدل على كتفين يبرز من تحتهما ثديان ناهدان، وفي صفحة أخرى رسم أبرز ما فيه ضخامة الردفين وانسجام الساقين تحتهما، وفي صفحة ثالثة من كشكول تلميذنا رسم قدمين صغيرتين في حذاءين جميلين. وهكذا.. فإلى أي شيء يرمز هذا الصبي الجريء؟ ماذا يعني بهذه الرسوم وبالاشتغال بها عن الدروس؟ لعله هو نفسه لا يفهم السر ولا يستطيع أن يشرح لك الدافع. ولكن المدرس، إذا كان لبيبًا فطنًا، يدرك أن هذا التلميذ أكبر من زملائه قليلًا، وأنه لا يبعد أن يكون قد بدأ يبلغ مبالغ الرجال، وأنه يعبر بما يخطط عن إحساسه الجنسي الغامض الذي أخذ يدب في جسمه ويتمشى في نفسه ويلفته كرهًا إلى المرأة ومواضع الملاحة فيها وبواعث الافتتان بها ودواعي الرغبة فيها..

فلماذا يفعل التلاميذ ذلك؟ تظن أنه لا خلاف في أنهم إنما يرمزون بما يخطون -إذ كان لا يسعنا أن نقول بما «يصورون»- لكل ما له في نفوسهم وقع وأثر. ولا يفعلون ذلك طلبًا للثناء، أو التماسًا لحسن الأحدوثة وخلود الذكر، لأن دأبهم أن يخفوا هذا

الذي يصنعونه، ولا يدعون عينًا أجنبية تطلع عليه. وكل ما في الأمر أنهم دلوا بما خططوا على ما له تأثير في نفوسهم أو ما يشغل خواطرهم، فكانوا بذلك مثالًا مصغرًا لمزاولة الفن لذاته.

وهناك طور آخر يتلو هذا ويكون الشاعر فيه قوامَ النظام الاجتماعي، ونصير الدين أو الملك أو الرئيس أو الوطن أو لسان العصبية. وهو طور خلا به في الواقع عصر القبائل عند العرب، أيام كان الشاعر عضد القبيلة ونصيرها وفارسها وحاجبها وجلادها والداعي إلى خوفها وخشية بأسها، والمشيد بذكرها والمدون لمفاخرها وأيامها، أو بعبارة أخرى أيام كان العرب «لا يهنئون إلا بمولود يولد، وفرس تنتج، وشاعر ينبغ»: بالمولود ليشب منه فارس يذود عن القبيلة، ويحمي حقيقتها، ويدفع عن بيضتها، وبنتاج الفرس ليُركب في الحرب، وبالشاعر ليذيع محامد القبيلة، ويهجو عداتها، ويدون تاريخها ويسجل أيامها. ولم يكن الأمر كذلك على عهد ابن الرومي. نعم كان الشاعر لا يجد سوقًا تنفق فيها بضاعته إلا بين الملوك الحكام والأمراء والأشراف والموسرين، إذ كان هؤلاء وحدهم القادرين على تنويله وصلته، والإحسان إليه جزاء إحسانه إليهم وإلى فنه. وما كان هؤلاء ليلقوا بأموالهم من النوافذ، فإذا وصلوه وأجدوا عليه فإنما يفعلون ذلك ليخلدهم في شعره، ولينتقم لهم من خصومهم ومنافسيهم وحسادهم. ولكن حالات الاجتماع كانت قد تغيرت قليلًا، وتبدلت مراتب الناس وعلاقاتهم ومساعيهم غير ما كانت. والشعر كغيره ظاهرة اجتماعية، فكيف ينجو من هذا التطور الذي طرأ على ظروف الاجتماع؟ كان قضاة الكلام وفياصله، الشيوخ والرؤساء أو الملوك والوزراء والأمراء، فظل هؤلاء، ولكن ظهر إلى جانبهم العلماء والأدباء والرواة والنقاد، وبدأ الجمهور يبرز بعد الخفاء، ولم يكن ينقص الشعر إلا أن تظهر المطابع ووسائل النشر التي جدت بعد ذلك، وفي غير ذلك الزمن، وفي أمم أخرى، ليستقل هذا الفنُّ عن الملوك والأمراء

والرؤساء، وتدول دولة تحكمهم في الشعر وأغراضه ومناحيه، وليتحرر الشعراء ويخلو لهم الجو، ولتصبح الصلة بينهم وبين الجمهور مباشرة لا يعترضها شيء كما هي الآن مثلًا. وهو ما لم يشأه الله للشعر القديم.

إذن فقد كان ابن الرومي في طور انتقال؟ نعم. وبذلك يشهد شعره. وليس في عزمنا أن ننقل هنا كل ما يدل على ذلك وسنجتزئ بأمثلة قليلة، منها قصيدته الرائعةُ لما اقتحم الزنج البصرة وأعملوا في أهلها السيف، وفي مساكنها ومساجدها النار، فقال ميميته الفريدة في لغة العرب، واستنفر فيها «الناس» -الناس أي: الجمهور لا الخليفة ولا وزراءه ولا الأمراء- وجعل يستفز نخوتهم فيها بوصف البصرة وعزها وفرضتها «مينائها» ثم بالأهوال التي حلت بها من غارة الزنوج، والفظائع التي اجترحوها، والحرمات التي استباحوها، ثم بتصوير الخراب الذي حلَّ بها، والهوان الذي أصابها، ثم بتصوير الموقف في الآخرة حين يلتقي الضحايا والقاعدون عن نجدتهم «عند حاكم الحكام» وتأنيبه سبحانه لهم على خذلانهم إخوانهم، ثم بإهابته «بالناس» أيضًا أن يمثلوا لأنفسهم النبي صلى الله عليه وسلم ولومه أمته، ثم استنفارهم بعد كل هذه المثيرات والحوافز إلى إدراك الثأر وإنقاذ السبي. وهي قصيدة في الطبقة الأولى من الشعر، لو غيّرت ما فيها من الأسماء والمحليات لخيّل إليك أنها مما قال بيرون في سبيل استقلال اليونان أو توماس هاردي في إبان الحرب العظمى. وإنه ليؤسفنا أنها أطول من أن تنقل، وأنها لا تحتمل الاختيار ولا تقبل الاختصار. فليرجع إليها القراء في الديوان ليروا كيف عدل بالخطاب عن سياقه المألوف في ذلك العصر، ولم يعبأ لا بالملوك ولا الأمراء، ولم يفرض أنهم هم وحدهم المطالبون بالدفاع والنجدة، بل اتجه إلى جمهور الناس بصفته فردًا يقدر ما عليه وما على الأفراد مثله من واجب قومي ديني لا يخليه هو أو سواه منه شيء. وإنه لعجيب أن تخلو القصيدة من كل ذكر أو إشارة، صريحة أو خفية، للحكام. وليس يسع

القارئ إلا أن يذكر بها ما كان يستفزّ به الكتاب والشعراء والجماهير في أممهم في إبان الحرب العظمى الأخيرة.

ومن الأمثلة أيضًا أسلوبه الروائي الذي يطالعك من أكثر قصائده، وعدم اقتصاره في الوصف على الظواهر المحسوسة، ومحاولته الإفضاء إلى البواطن وتصويرها، وتتبعه لحالات نفسه ولما يتقلب عليه ويمر به، حتى غلب ذلك على شعره على الرغم من الأغراض الأخرى التي كان ينظم فيها الشعر من مثل المدح والهجاء والعتاب والاستعطاف وغير ذلك.

وليس يخفى علينا أن هذه من خصائصه هو، ومميزاته التي انفرد بها، ولكن من الذي يستطيع أن ينكر أن ما تبتكره الشخصياتُ الممتازة يكون من عوامل التطور التي لا يمكن إغفالها؟

وبعد، فإذا كان في أهاجي ابن الرومي كلام لا يعد من الشعر الصحيح بمعناه الاسمي، فذلك على الأكثر ذنب عصره الذي كان يقبل ذلك ويتسع له ويُغري به في الواقع، كما هو الشأن في أفحاشه وعرره التي لا تطاق في عصرنا الحاضر مثلًا. ونقول على الأكثر، لأن ابن الرومي كان حادّ المزاج، سريع الغضب، متمرد الطبع. فعصره، من ناحية، كان يُبيح له أن يفحش وأن يأتي بالشناعات، ويخرج بالشعر عن سبيله، ويعدل به عن غايته، ويتخذه في بعض الأحايين أداة انتقام شخصي فظيع. ولكنه لا يعيبك، حتى في أفحاشه، أن تلمح باعثًا خلقيًّا ساميًا يخرجه عن طوره. فقد كان الرجل على كثرة أضاحيكه جادًّا في حياته وفي النظر إليها. ولم يكن لهوه وعبثه إلا لفرط إحساسه بمرارة الجد في هذه الحياة، ويشعرك بذلك قوله، وهو حسبنا شاهدًا مغنيًا عن كثير أمثاله:

كيف العزاءُ وما في العيش مغتبط ولا اغتباطَ لأقوام يموتونا

متى نعش فبِلى الاحياء يدركنا وإن نمت فبِلى الأموات يقفونا
لا بد من ميتة للمرء أو هرم يظل منه جليدُ القوم موهونا
والبيض والجون لا نهوى فراقهما ولا نزال نذم البيض والجونا
وكل لهو لهاه الناس مشغلةٌ عن ذكر ما هم من الأحداث لاقونا

وهو على كثرة ما في شعره من الفحش، صحيح الإدراك من حيث الآداب والأخلاق. ومن شاء أن يقدر مبلغ ما رُزق ابن الرومي من صحة الإدراك الأخلاقي فما عليه إلا أن يدع ما يراه في كلامه من التنزي إلى المقابح وأن يبحث عن البواعث التي دفعته، والأسباب التي أغرته، فإنه لا يلبث أن يتوسم من معاريض كلامه، ويستشف من وراء لفظه، صحة مبادئه وعظم نصيبه من سمو النفس وجلالة الروح.

أما أهاجيه الفكاهية فمن أبدع ما له. وهو في أكثرها مصور كعادته «لا تنقصه إلا الريشة واللوحة، بل لا تنقصه هاتان لأنه استعاض من الريشة بالقلم، ومن اللوحة بالقرطاس، فاكتفى بهما وأثبت في النظم البديع ما لا تثبته الألوان والأشكال» كما يقول صديقنا الأستاذ العقاد. فمن ذلك قوله في بعضهم:

ويحَ ابن يوسف! ليت الويح عاجله فما يدانيه في بلواه أيوب
طول وعرض بلا عقل ولا أدب فليس يحسن إلا وهو مصلوب!

ولو غيره من الضعاف لعدل عن «المصلوب» إلى ما هو دون ذلك.

ومنه وصفه للأحدب، وقد تقدم، وقوله في أبي حفص الوراق وكان قصيرًا:

وقصير تراه فوق يفاع فتراه كأنه في غيابه

لم تـدع قفـدَه يـد الـدهر حتـى ... قمعـت فيـه طولـه وشـبابه

وجلـت رأسـه نِعـمًا فأضـحى ... بـارز الـصرح مـا يُـوارى صـؤابه

يـا أبـا حفـص الـذي فطـن الـدهر ... لميـدان رأسـه فاسـتطابه

ظـرف الـدهر في اتخـاذك صـفعا ... نّـا ومـا خلتـه ظريـف الدعابـه

وقوله في بخيل:

وغـدونا إلى ميمـون نطلـب حاجـة ... فأوسـعنا منعًـا جـزيلًا بـلا مطـل

وقـال: اعـذروني إن بخـلي جبلّـة ... وإن يـدي مخلوقـة «خلقـة القفـل»

إلى كثير من وصفه للأقفاء واللحى والعثانين والمواقف المضحكة كقوله:

إن أبـا حفـص وعثنونـه ... كلاهمـا أصـبح لي ناصـبا

قـد أغربـا بي يهجـواني معًـا ... وحـدي وكـان الأكثـرُ الغالبـا

أقـسمت مـا اسـتنجد عثنونـه ... حتـى غـدا لي خائفًـا هائبـا

إن كـان كفـؤًا لي في زعمـه ... فليعتـزل لحيتـه جانبـا!

وشبيه بهذا الموقف المضحك قوله في متفلسف دعيٍّ يتسقرط ويزعم نفسه فارسًا كميًا:

أطلـق الجـرذان بالليـل ... وصـح: هـل مـن مبـارز؟!

وقوله في بخيل أو من يزعمه ابن الرومي بخيلًا:

يقـتر عيـسى عـلى نفـسه ... ولـيس بيـاق ولا خالـد

فلـو يـستطيع لتقتـيره ... تـنفس مـن منخـر واحـد!!

وليلاحظ القارئ أنه لا يخلط بين مجال المصور ومجال الشاعر، ولا يحاول أن يجعل قلمه ريشة، فإن ذلك لا خير فيه ولا ثمرة له، ولكن يجيء لك بما هو حري أن يعينك عليتصور ما يريد. وآية ذلك أنه حين أراد أن يصف قصر أبي حفص وضعه على يفاع أو مرتفع ليساعدك على تقدير النسبة، وذكر لك أن «صرح» رأسه مجلوٌّ، وأنه من الصلع بحيث لا يواري بيض قملة، لأنه لا شعر هناك، وأن صفع الدهر له قمع طوله! وتأمل كذلك تصويره معنى البخل بقوله: إن اليد مخلوقة خلقة القفل! ولعمري ماذا يسع المصور بريشته في مثل هذا؟ إن البخل ليس مما ينطق به الوجه، ورسم اليد مُطبقة لا يدل عليه ولا يفيد الناظر شيئًا. فهو كما ترى مصور، ولكن في حدود فنه وفي الدائرة التي تعينها قدرةُ الألفاظ.

(٥)
فلسفته
(أ)

هل لابن الرومي فلسفة تستخلص من شعره الذي كان يهضب به ويسح؟ أو إن شئت، وكنت مثلنا لا تقوى أضراسك على مضغ الجلاميد التي يطلقون عليها اسم الفلسفة أحيانًا، فقل: هل له مذهب في هذه الحياة؟ وكيف كان إدراكه لسننها، وإحساسه بصروفها، ومجاوبته لوقعها، وملابسته لحالاتها؟ وهل أركض عقله في ميدانها وأطلق خياله في سمائها؟ وفي الجواب على ذلك، الحكمُ على ابن الرومي. فإذا كان الجواب نعم، وكان الرجل عندك صاحب نظرة خاصة إلى الحياة، فقد سلكته مع الفحول. وإن كان لا، وأحج أن لا يكون كذلك، فقد هبطت به إلى منزلة الظرفاء الذين يلتمسهم المرء أحيانًا وينضو عند عتبتهم الجد والتفكير، ويحاضرهم محاضرة المترفِّه المتلهي، كما يداعب الشيخ الوقور فتاه الحدث، ويمسح له جبينه، ويلمس كفه صباحة محياه الجديد ونضارة متوسمة القشيب، ويجري مع لسانه بالكلام الخفيف، ويضاغيه ويلاثغه ويمتع سمعه وعينه بسذاجته وبجهله الحلو وغفلته اللذيذة.

ونعتذر إلى ابن الرومي من هذا السؤال -لو أنه يعي اعتذارنا أو يحفل ما نقول فيه!- وأكبر الظن أنه لو كان حيًّا، ورآنا نسأل ألهُ مذهب أو رأي في الحياة، لأخبت إلينا وأوضعت أهاجيه النارية:

من كل سائرة بذلك يرتمي بركابها الأغوار والأنجاد

فالحمد لله الذي أماته قبل أن يحيينا! فما نظنه كان يشفع لنا عنده أنا نُشيد بذكره

وننشر مطويه وننصف عبقريته.

كلا! لا مراء في أن ابن الرومي من كبار الفحول، وأنه كان يحس الحياه بكل جارحة فيه، بل يقبل على الحياة وينشد الإحساس بها ويعرِّي أعصابه لها، ليتملى من الشعور بها فيلابسها بروحه، ويدير عينه ويقلبها تارة في نفسه وتارة أخرى فيما حوله، ولا يمل التأمل، ولا يفتر عن التدبر، ولا يكف عن المقابسة والمقابلة، وعن إرسال النظر رائدًا وإجالة الفكر حاصدًا. وبماذا خرج؟ قد لا يرضيك ما انتهى إليه واستقر عليه. ولكن ما قيمة ذلك؟ إن الشاعر ليس مطالبًا بأن يقدم لك مذهبًا فلسفيًا جامعًا مفصل الحدود واضح المعالم، ولا بأن يحسر لك ظلالَ الإبهام عن مشكلات الحياة، ويزيح حجب الكلام عن أسرار الوجود. بل حسبنا منه أن تكون له فكرة عن الحياة بخيرها وشرها، وسعودها ونحوسها، وقوانينها ومظاهرها، وأن يفضي إليك بوقعها الذي لا مهرب منه ولا متحول عنه، والحياة، بعد، لها أكثر من وجه واحد ومظهر واحد وليست صفحتها الغامضة السوداء التي يفتحها لك الشاعر بأقل فتنة أو أضأل نصيبًا من الصواب، من صفحتها الواضحة البيضاء التي ينشرها لك الفلاسفة والعلماء. فإذا كان لا يروقك ما خطه ابن الرومي في صفحته، وأطلعك منه على جانب من تاريخ الإنسانية، فإن في الحياة كثيرًا مما لا يروق ولا يعجب، وهو مع ذلك من لوازمها. ولقد سبق من ابن الرومي الاعتذار من ذلك بأن سأل: «أما ترى كيف رُكب الشجر؟».

رُكب فيه اللحاءُ والخشب اليا ... بس والشوك بينه الثمر

وكان أولى بأن يهذب ما يخلق ... ربُّ الأرباب لا البشر

وكان ابن الرومي يرى أن الأدب فن يزاول ويتعهد ويكون المرء له (أعني الخدم)، وينقطع له ويتوفر عليه وينحرف بسببه عن كل كسب، ويبيت «يمري فكره تحت

الظلم»، وأن للأديب من أجل ذلك حقًّا على الناس وحرمة واجبة الرعاية، وقدمًا تستحق أن تُثاب، وأن من تناسى حقه فقد ظلم. فليس الشعر عنده عبثًا ولا لهوًا، بل هو غاية الجد، وليس مطلبه بالسهل الهين بل هو مغاصٌ في درك اللجة «من دون درها الخطر».

وفيه ما يأخذ التخير من غا ... لٍ ثمين وفيه ما يذر

وهو فن حي ينشأ ويشب ويهرم ككل حي آخر:

والشعر كالعيش فيه ... مع الشبيبة شيب

ولا نُكران أنه قال في آخر حياته:

حتّام يا سائس الدنيا تؤخرني ... وإنني لنظير الصدر لا الكفل

لكل قوم رسوم أنت راسمها ... ولست فيهم بذي رسم ولا طلل

لا في التجار ولا العمال تنصبني ... وإنني لقليل المثل والبدل

ولكن ذلك لم يكن لزراية على الأدب، أو اغتماض لقدره بل هي لهفة على سوء حظه المادي. وكيف تعقل منه الزراية على فنه وهو في القصيدة عينها يقول:

في «دولتي» أنا مغصوب وفي زمني ... عودي ظمئ بلا ري ولا بلل!

ومن أين جاءته «الدولة» وصار له «زمن» بغير شعره؟ وحسبك شعوره هذا بأن له دولة وزمنًا، دليلًا على إكباره فنه. وليس هذا بالخاطر العارض، فإنه المتسائل في معرض هجاء لأبي إسحاق البيهقي:

أبيهقي يقول الشعر في زمني؟ ... أولى له ما لمثلي تنبغ النبغه

وما امتهاني به شعري وخلقته ... تهجوه عني وعن غيري بكل لغه؟

ولم يكن يقول كالعرب: إن أمتهم أشعر الأمم، وحكمتها أعظم الحكم، بل كان يقول:

قد تحسن الروم شعرًا ... ما أحسنته العرب

يا منكر المجد فيهم ... أليس منهم صهيب؟

وصهيب هذا، ابن سنان، صحابي أصله رومي وأسلم، وفي نظرته هذه اتساع وإنصاف وخلو من عصبية كانت تكون منه متكلفة غير سائغة.

وهو كما أسلفنا رجل متشائم، وعنده أن الطفل إنما يبكي «لما تُؤذن الدنيا به من صروفها» وإنه لذلك:

إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يُهدد

ويعلل ذلك بأن للنفس أحوالًا «تشاهد فيها كلَّ غيب سيُشهد» وكأنه يريد أن يقنعك بأن هذا الرأي هو ثمرة التجربة، وأنه لا يرمي به جزافًا، ولا يلقيه على عواهنه، ومن أجل هذا يمهد له بأنه إنما يذهب إلى ذلك بعد أن شابت رأسه، وقوست قناته، ودب الكلال في عظامه، وتوكأ على العصى. ولا غرابة بعد ذلك أن الدنيا عنده:

دارٌ غريب خيرها ... وترى الشرورَ بها مُر به

أدوت وغاب دواؤها ... عن كل نفس مستطبه

والمرء منذ يولد إلى أن يُوارى في التراب «رهن النوائب» وحسبه من هذه النوائب فقدُ شبابه:

ولو لم يصب إلا بشرخ شبابه ... لكان قد استوفى جميعَ المصائب

وما دام المرء يموت فليس في العيش مغتبط، وكل لهو مشغلة عن ذكر ما يلاقيه المرء من الأحداث. وكيف يطيب العيش للإنسان وهو موقن بأن طيبه سيذهب كالحلم؟

ومن كان في عيش يراعي زوالَه فذلك في بؤس وإن كان في نعم

وكر الأيام انتقاص من القوى. حتى الأبناء تخوُّنٌ وتنقص من المرء يُزاد في «الأبد» ويضاف إليه، وهم عبارة عن قوى تستجدها الحياة بأن تنتقصها من الآباء، والمرء يسر بمولوده وهو لا يدري أن الزمان يهده بشد مُنة أبنائه:

ومن العجائب أن أسر بما يُشد بأن أُهد!

ولكن هذا ليس بعجيب إذ لولاه لما طلب الناس الذرية.

والمرء إذا أمل أن يعيش مثل ما عاش «فيا ويحه إن خاب أو أدرك الأمل» لأنه إذا طال عمره اكتهلت همته ولم يعد يجد ابتهاجًا بما كان يبتهج به، أو قدرة عليه أو بشاشة له:

وحسب من عاش من خلوقته خلوقةٌ تعتريه في أَرَبِه

وإذا فاتت المرء متعة فهو غير مغبون في الواقع، لأن من يدرك شيئًا لا يزال قلقًا خائفًا يترقب افتقاده. أما من فاتته متعة فهو مطمئن وقد أمن أن يُرزأها:

وكفى عزاء لامرئ عن فائت أن لا يخاف عليه صرفَ زمان

ومتى كان الأمر كذلك:

فلا تغبطن المترفين فإنهم على حسب ما يكسوهم الدهر يسلب

وسليم الزمان كمنكوبه، وموفوره كمحروبه، والممنوح مث الممنوع، والمكسوُّ مثل المسلوب:

ومحبوبـــه رهـــن مكروهـــه ومكروهـــه رهـــن محبوبـــه
ومأمونـــه تحـــت محـــذوره ومرجـــوه تحـــت مرهوبـــه
وريـــب الزمـــان غـــدًا كـــائن وغالبـــه مثـــل مغلوبـــه

فإذا غصبك الزمان حظك فاستر نفسك فإن هذا الستر لا يغصب. ولا مفر على كل حال من القدر، فطامن حشاك فإن ما تحب وما تكره واقعان بك لا محالة:

وإذا أتـــاك مـــن الأمـــور مقـــدر وهربـــت منـــه فنحـــوه تتوجـــه

والسعادة والشقاوة حظوظ. والحظ يأتي صاحبه وادعًا، ويُعيي سواه ساعيًا:

إذا كـان مجـرى كوكـب سـمتَ هامـةٍ علاهـا وإلا اعتـاص ذلـك مطلبـا

والذي يسعى ليدرك حظه «كسار بليل كي يسامت كوكبًا».

ولـو لم يـسر وافـاه لا شـك طلبـه بغـير عنـاء بادئًـا ثـم عقبـا

ولا يحسب أحد أن ابن الرومي راضٍ عن ذلك، وكيف يرضى عنه وهو لا يرى مطلب الدنيا يهون إلا للجهلاء والحمقى؟

فلـيس ينفـك ذو علـم وتجربـة مـن مأكـل جـشب أو مـشرب رنـق
وذو الجهالـة منهـا في بُلهنيـةٍ مـن مـسمع حـسنٍ أو منظـر أنـق

وهل يعد راضيًا من يقول:

تبـارك العـدل فيهـا حـين يقـسمها بـين البريـة قـسمًا غـير متفـق!

وقد أنحى في قصائد شتى على الحظوظ، وعزى نفسه مرة بأن الصخر راجح الوزن راس، وأن الذر شائل الوزن هاب، ومرة أخرى بأن الجيف المنتنة هي التي تطفو على

اللجة، أما الدر فيكون تحتها في حجاب، وطورًا بأنه لا وجه للعجب والألم من تخطِّي الحظ الأصيل الرأي لأن الله خلق الناس بلا وَبَرٍ وكسا البهائم «أوبارًا وأصوافًا»! وطورًا بأن هذه الدنيا ليست سوى جيفة ميت:

«وطلابها مثل الكلاب النواهس»!

وأنه لا محل لتفاضل الناس «بتفاضل الأحوال والأخطار» فإن هذا جور.

وإذا كانت الدنيا كذلك، وكان الشر فيها غالبًا، فالحذر واجب والحزم فرض، ليقل التجني على المقدور. وعلى المرء إذا ظن شرًّا أن يخافه! فرب شرٍّ يقينُه مظنونه.

كم ركونٍ جنى عليك حذارًا ... من أطال الركون قلّ ركونه

ولا تبيتن آمنًا من أحد، فآمن ما يكون المرء إذا لبس الحذرَ من الخطوب.

ومن أمن النفس أن تخاف، وأن تستشير الحزم، والعدو مستفادٌ من الصديق.

فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

ومن الحكمة أن لا يقذع المرء الحاكم في أيامه، خوفًا لسطوته بل حتى إذا أصابه الزمن بصرفه، حذرًا من رجعته.

فليعلم الرؤساء أني راهب ... للشر والمرهوب من أسبابه

واعلم أن الناس من طينة خسيسة «يصدق في الثلب لها الثالب».

لولا علاج الناس أخلاقهم ... إذن لفاح الحمأ اللازب

وأديم الإنسان من أديم الأرض، فهو مثلها خسيس، والنفس تلؤم رجوعًا إلى طينتها، واللؤم مركوز في الطبع البشري، مركب في الجبلات:

ولا بـد مـن أن يلـوم المـرءُ نازعًـا إلى الحمـأ المـسنون ضربـة لازب

حتى النفس الكريمة لا مفر لها من رجعة إلى هذا الحمأ المسنون «ثم تكرم». والشر بين الناس عام مشترك، وهو الأصل، أما الخير فيهم فغير مشترك. والضعيف في الدنيا موطأ مهين، والقوي محترم مرهوبة شِرَّته. والخيِّر المسالم أو المقلم الأظفار لا يعبأ به أحد أو يحسب له حسابًا.

لا بـدع! إن الحـرب مرقوبـة والـسلم لا يرقبـه راقـب

ولهذا كان الحلم ضعفًا، وكانت رقابُ أهله مقصودة بالهوان، فلا بد من ادّراع الجهل فوق الحلم، وإلا اعتُمد المرء بالإساءة واستخف به الناس واستطاعوا عليه.

مـن صـونك الحلـم أن تدرعـه الجـ ـهل فظـاهر مـن دونـه زرده

وأكثر الناس يتسخُّون طلبًا للحمد ونفاقًا، ويتكلفون الندى ولكن الكريم ليس الذي يعطي عطيته عن ثناء أو التماسا للذكر.

بـل الكـريم الـذي يعطـي عطيتـه لغـير شيء سـوى استحـسانه الـنفلا

ومن كان هذا شأنه فهو لا يبذل العرفَ ليصيد به محمدة ولا يمنُّ على من يقلده منته.

والإحسان الذي هو من هذا الضرب آنس للقلوب، والنفس إذا تذكرت أياديها الخالصة لوجه الله «أفاقت من معالجة الكروب». والنعمى قيد، ولكنها إذا قوبلت بالشكر زال القيد، وتكافأ المنعم والشاكر؛ لأنه إذا كان المنعم قد جاد بماله أو جاهه، فقد جاد الشاكر من فؤاده.

ولقـد كافـأ بـالنعمى امـرؤ كافـأ النعمـى بـإخلاص الـوداد

ولا ينبغي أن تكون الفضائل باعثها الرغبة أو الرهبة.

أأحـــب قومًـــا لم يجبـــوا ربهـــم إلا لفـــــردوس لديـــــه ونـــــار؟

والحلف الكاذب جائز عنده مع الاضطرار وضيق الحال:

وإني لـــــذو حلـــــف حـــــاضر إذا مـــا اضـــطررت وفي الحـــال ضـــيق

وهـــل مـــن جنـــاح عـــلى مرهـــق يـــدافع بـــالله مـــا لا يطيـــق؟

والحشمة محبوبة بين الصديقين لتحجز بينهما وبين العقوق، أما التبسط الذي يؤدي إلى بخس واجبات الحقوق فلا حبذا هذا وأقبح به!

(ب)

قد بلغنا -ولا حمد- أعوصَ مسائل ابن الرومي، ونعني بها نظراته في فلسفة الجمال. وليس وجهُ الاعتياص أن في شعره غموضًا أو التياثًا أو اضطرابًا يدفعك إلى الشك في تأويل نظرته، أو التردد في حملها على ما يغريك به بعض كلامه. كلا! فإن ابن الرومي شاعر مشرق الديباجة، ناصع الأسلوب، واضح المحجة، وهو غوّاص لا يستخفه ما يعن له في أول الخاطر، ومصفٌّ يأبى أن يدع ذرة تتفلت، ودقيق دوّار العين يطلب الإحاطة بجوانب ما يتناول، وملحاحٌ لا يجتزئ بأن يدفع إليك الفكرة ناضجة تامة ويدعك وشأنك معها، بل يبرزها لك كلما عرضت مناسبة ليقسرك على الالتفات إليها والعناية بها، وحتى كأنه لا يطمئن إلى ذكائك وقدرتك على الالتقاط والتفطن. وإنما وجه العسر والمشقة هو كيف نتناول الموضوع؟ ومن أية ناحية نطرقه؟ وماذا نأخذ وماذا نذر؟ ومما يضاعف المشقة أننا لا نحب أن نظل نكتب عن ابن الرومي إلى آخر العمر! وأحرِ بأن لا نفرغ منه إذا أردنا الاستقصاء، إذ كان معنى الاستقصاء أن نضع نحن كتابًا ضخمًا له أولٌ وليس له آخر في فلسفة الجمال، وأن نعتسف من أجل ابن الرومي وإكرامًا لخاطره ولسواد عينيه -إن صح أنهما كانتا سوداوين!- تلك الوعور التي زحم بها الطريقَ أفلاطون وأرسطاليس وبلوتيناس من القدماء وكانت وشلنج وهيجل وشوبنهوار وهربارت ولسنج وجيته وشيللر ومئات غيرهم من الألمان، وبيروبوفيروتين وليفيك وسواهم من الفرنسيين، وهتشنسون وشفتسبري وريدورسكن وهوم وبيرك واليزون وبين وسبنسر من الإنجليز؛ وأن نحاول أن نقامس في ذلك اليم الطامي كلّ هاتيك الحيتان الفظيعة! لا يا سيدي القارئ عفوَك! فإني كابن الرومي لو أُلقيت في هذا البحر «وصخرةً،

لوافيت منه القعر أول راسب!».

ولم أتعلـــم قـــط مـــن ذي ســـباحة سوى الغوص والمضعوف غير مغالب

وكما كان أيسر إشفاقه من الماء أن يمر «به في الكوز مرَّ المجانب»، كذلك أيسر إشفاقي من مباحث أصحابنا هؤلاء أن لا أقرب الرفَّ الذي فيه كتبهم! وإذا كتب الله لي أن أفتحها أغمضتُ عيني! ولقد كنت في بعض ما سلف من عمري جريئًا، وكنت لا أتهيب كل التهيب أن أفتح واحدًا من هذه الكتب، ولكني كنت لا أكاد أعبر بضع صفحات حتى أحس كأني مطل من زحلوقة على هاوية سحيقة، فتنفرج شفتاي عن صوت كهذا «بوررررر!» فأرفع راسي فزعًا، وأمسك بجوانب الكرسي حتى تطمئن نفسي ويذهب عني الروع وأحمد الله على السلامة!

إذن فما العمل؟ وكيف نتم -على أي وجه- ما بدأناه من الكلام عن ابن الرومي؟ الحق أقول لك، أيها القارئ، إني لا أدري! وقد بدأت أشعر لابن الرومي بغيظ واضطغان لدفعه إياي إلى هذه المآزق المرعبة.

ولقد حدثتني نفسي أن أبتر الكلام مكتفيًا بما سبق، وأن أجعل الختام هجاء له! لكني ذكرت قوله:

رقـــادك! لا تـــسهر لي الليـــل ضـــلة ولا تتجـــشم فيّ حـــوك القـــصائد

أبي وأبـــوك الـــشيخ آدم تلتقـــي مناســـبنا في ملتقـــى منـــه واحـــد

فـلا تهجني! حـسبي مـن الخـزي أنني وإيـــاك ضـــمتني ولادةُ والـــد

فعضضت شفتي وعدلت! وبدا لي أن أضرب صفحًا عن الشواهد على قدر الإمكان، لأنها آلاف مبعثرة لا يتسع لنقلها المقام، وأن أورد ما يدل عليه شعره؛ أي أن أقدم للقارئ صورة عامة مجملة عن آراء ابن الرومي وأن أدع له رسم الخطوط

التفصيلية إذا شاء، ولماذا لا يتعب القارئ قليلًا؟ ما الذي يوجب على الكاتب أن يتكلف كل ضروب العناء حتى لا يحوجه حتى ولا إلى «هضم» الفكرة؟ ماذا يصنع القارئ برأسه هذا الذي فوق كتفيه؟ أليس أجدى عليه أن يحتاج إلى التفكير بنفسه ولنفسه حتى لا يعتاد الكسل، وحتى لا يعود رأسه حملًا على كتفيه؟ هذا أصلح ولا شك! فإن كان لا يعجبه هذا، ولا ترضيه طريقتنا الجديدة، فما عليه إلا أن يقف عند هذا الحد ولا يمضي في قراءة المقال! والآن فلنبدأ:

من أول ما يلفت النظر في شعر ابن الرومي نوعُ إحساسه بالطبيعة. فهو لا يحسها ولا يتأملها إلا إحساسًا شعريًا؛ ونعني بذلك أن خياله ينشط، وأنه حين يتدبر قواتها ومباهجها وحالاتها المتنوعة، يفيض من حياته عليها، ويعيرها من إحساسه وخواجه حتى تعود في نظره حية نابضة مثله، لها حسٌّ وروح وذاكرة، بل إرادة. نعم إرادة! وحسبك أن تقرأ له هذا البيت من جيميته التي يرثي بها أبي الحسين العلوي:

لمن تستجد الأرضُ بعدك زينة فتصبح في أثوابها تتبرج؟

فإنك على أي محمل حملته، وكيفما أولت صدر البيت، لا تستطيع أن تهرب من الشعور بأن هذه الأرض - التي «تسمى الأرض أحيانًا»- ليست مادة خالية من الحياة ولا صورة ميتة. على أن الطبيعة عنده مسخرة للحياة، فهي دونها وبعضها، ووسيلة إلى تحقيق غاياتها، وليست نوعًا من الحياة قائمًا بذاته مستقلًا عن حياة الإنسان. وهذه نظرة واضحة العلة، لأنه بعد أن يريق عليها من فيض حياته هو، لا يسعه إلا أن يشتمل عليها أو يجعل الحياة نفسها مشتملة على الطبيعة معه.

وقد تراه -أحيانًا- حين يصف منظرًا، لا يكتفي بأن يعزو إليه الحياة والحس، بل يكاد بخياله يتسرّب في خلال هذا المنظر ويغيب في أثنائه، لا من الوجهة المادية بل من حيث الإحساس. ونظن أن هذا الكلام يحتاج إلى مثل يُضرب ويستعين به

القارئ على فهم المراد فنقول: هبك تتدبر هيكلًا من الهياكل المصرية القديمة مثلًا فإنك إذا كنت قوي الخيال أو نشيطه، وأرقت على هذا الهيكل بعض حياتك أمكنك أن تتصور أن هذه العُمُد ليست حجارة مرفوعة يستوي فوقها سطحٌ ويتنزن، بل هي مثلًا حركة صاعدة مستمرة، أو قوى حية تعالج أن تقاوم الضغطَ الواقع عليها الذي يريد أن يهبط بها. ولست تستطيع أن تتصور ذلك دون أن يخالجك إلى حد كبير نفس الإحساسات التي تفيضها على هذه العمد وما فوقها -وابن الرومي حين يصف الطبيعة يعيرها روحه، ويضع نفسه موضعها، ويفضي إليك بإحساسه معزوًّا إلى الموصوف. ولكنه مع هذا لا يفقد شعوره بنفسه وبالعالم، ولا يكون كالمسحور، بل يظل متفطنًا إلى حقائق الدنيا اليومية، فكأن شعوره مزدوج: يقبل تصوير خياله للحقيقة، ويتعلق به، ويكبحه عن الغلو والاستغراق المفرط الإقرارُ الباطن للحقيقة الملموسة وراء ذلك. وليس يخفى أن الأمر في هذين يتوقف على عنصر النشاط الخيالي الذي يختلف باختلاف الناس، وعلى مقدار الاختلاف في التجارب السابقة، وعلى طبيعة المزاج وغير ذلك مما يدفع إنسانًا إلى إيثار المرئيات، وآخر إلى التعلق بالأصوات، وهكذا.. مما يجعل مجال الخيال وعمله فيما يتناوله الحس، مختلفًا باختلاف الناس.

وواضح من شعر ابن الرومي أن إحساسه بالجمال في الطبيعة وفي الإنسان لم يكن من طريق النظر والسمع وحدهما، بل كان لحواسه الأخرى، ولا سيما اللمس والشم، حظٌّ وافر من القدرة على إفادة الاستمتاع بالجمال. فكان إذا نظر مثلًا إلى زهرة يكاد «يلمسك» غلائلها من وصفه لها، ويشمك أريجها، ويشعرك كأنه يمسحها بكفه في رفق، ويدنيها من أنفه في سكر، وكان حظ الشم عنده عظيمًا أيضًا. غير أن أوفر الحظوظ للسمع والعين ومن حقهما ذلك ولا سيما عند ابن الرومي الذي «يكاد» يدور كل إحساس له بالجمال في الطبيعة وفي الإنسان على «الغريزة النوعية» وذلك

لأن النظر والسمع، لكونهما يستطيعان أن يتناولا المرئي والمسموع عن بُعد، يسمحان بأن يشترك في المنظور أو المسموع خلقٌ كثير -وذلك أيضًا ما تستطيعه حاسة الشم إلى حد كبير. ومن هنا كانت حاستا النظر والسمع، ثم حاسة الشم، حواسًا اجتماعية؛ أي أن بها -ولا سيما بالأوليين- يتمكن أكثر من فرد واحد من الاشتراك في التأثر بالجمال، ولذلك كانتا هما الحاستين الفنيتين؛ لأنهما وسيلة مشتركة للإحساس بالجمال، ولمضاعفة هذا الإحساس وتقويته بتأثير التعاطف. وإذا شئت دليلًا محسوسًا على ذلك من عصرنا الحاضر فالتمسه في نجاح المسارح التمثيلية ودور الغناء والرقص والصور المتحركة وما إليها، أضف إلى ذلك أن الإحساس من طريقهما أصفى وأسمى، إذ كانتا أبعد أخواتها عن وظائف الحياة الضرورية وحاجاتها الملحة ومطالبها المقلقة. وهما يحضران إليك الأشياء المادية في أقل حالاتها إزعاجًا. لأن الأشكال والألوان والأصوات، إذا قيست بما يلمس ويتصل من طريق اللمس بأجسامنا، أشبه بصور للأشياء المادية أو رموز بعيدة لها، ومن أجل ذلك كانت هاتان الحاستان أصلح من غيرهما لأن يكونا أداة إلى الاستمتاع الفني بالجمال.

وقد كان ابن الرومي -كما أسلفنا- يرى الطبيعة مسخرة للحياة ومعوانًا على حياة الفرد وحياة النوع أيضًا. فهو القائل:

إذا شئتُ حيتني رياحين جنة ... على سوقها في كل حين تنفس

وإن شئت ألهاني سماعٌ بمثله ... حمام تغنى في غصون توسوس

تلاعبها أيدي الرياح إذا جرت ... فتسمو وتحنو تارة فتنكس

إذا ما أعارتها الصبا حركاتها ... أفادت «بها أنس الحياة» فتؤنس

توامض فيها كلما تسمع الضحى ... كواكب يذكو نورها حين تشمس

والقائل في وصف روضة:

وريـــاض تخايـــلُ الأرض فيهـــا خـــيلاء الفتـــاة في الأبـــراد

وتأمل إلى جانب هذا البيت قوله في نسوة:

ومِـسن في حلـل الأفـواف عـاطرة فخلـتهنَّ لبـسن الـروضَ أفوافـا

فالروضة كأنها الفتاة تميس في برد مفوّف، والفتاة كأنها الروضة في وشيها المطرف؛ وكما أن المرأة تتجمل وتتزين وتتعطر وتتدهن لتملك قلب الرجل وتستولي على هواه حين تبرز له، كذلك الطبيعة في الربيع:

أصـبحت الـدنيا تـروق مـن نظـر بمنظـر فيـه جـلاءٌ للبـصر

أثنـت عـلى الله بـآلاء المطـر فـالأرض في روض كـأفواف الحـبر

نـيرة النـوار زهـراء الزهـر تبرجـت بعـد حيـاء وخفـر

تـبرج الأنثـى تـصدت للـذكر

والمرأة إنما تتجمل وتتحلى للرجل، لا حبًّا في الزينة ولا طلبًا للتجمل من حيث هو وباعتباره غرضًا في ذاته، وإنما تفعل هذا لأنه بعض سلاحها الذي تفنص به الرجل لتؤدي وظيفتها التي خلقت لها، وهي المحافظة على النوع. وكذلك الحياء، عنده، سلاحٌ جنسي، لا تتكلفه المرأة ولا تتصنعه، ولكنه من الصفات التي تضيف إلى جمالها وتجعله أفتن للب وأسحر للقلب. والمرأة حين تفوز بإرضاء عاطفتها الجنسية لا تعبأ بالتجمل ولا تحرص على زينتها أو حيائها أو دلالها، أو غير ذلك من أدوات قنصها، إذ لم يبق لها من محل أو عمل. وله في ذلك أبيات ليس أعمق منها ولا أصدق، وإن كان فيها فحش كثير، ومنها:

تتجمـل الحـسناء كـل تجمـل حتـى إذا مـا أُبـرز المفتـاح

نـسيت هنـاك حياءهـا ودلالهـا شـبقًا وعنـد المـاح ينـسى الـداح!

وليس الجمال عنده شكلًا فحسب، بل هو أيضًا «تعبير» وهو فوق هذا يأبى أن يكون له حدود ينحصر فيها ويقتصر عليها ويسهل تعديدها، ثم هو، إلى هذا، صفة يتعذر التفريق الدقيق بينها وبين ما هو إليها من الصفات. وما عليك إلا أن تقرأ له داليته في وحيد المغنية، وكان شغوفًا بها، وفيها يقول:

وغريـــر بحـــسنها قـــال صـــفها ... قلـــت أمـــران هـــينٌ وشـــديد

يـسهل القـول إنهـا أحسن الأشياء ... طـــرًّا ويـــصعب التحديـــد

تتغنـــى كأنهـــا لا تغنـــي ... مـن سـكون الأوصـال وهـي تجيد

لا تراهـــا هنـــاك تجحـــظ عـــين ... لـــك منهـــا ولا يـــدر وريـــد

مـــن هـــدوء ولـــيس فيـــه انقطـــاع ... وســـجوٌ ومـــا بـــه تبليـــد

وفي صوتها يقول:

مـــد في شـــأوٍ صـــوتها نفـــسٌ كـــا ... فٍ كأنفـــاس عاشـــقيها مديـــد

وأرقّ الـــدلال والغـــنج منـــه ... ويـــراه الـــشّجا فكـــاد يبيـــد

فـــتراه يمـــوت طـــورًا ويحيـــا ... مـــستلذ بـــسيطه والنـــشيد

فيـه «وشي» وفيـه «حـلي» مـن الغـنم ... مـصوغ «يختـال» فيـه القـصيد

ثم يقول مستغربًا عجيبًا:

ليـــت شـــعري إذا أدام إليهـــا ... كـــرةَ الطـــرف مُبـــدئ ومعيـــد

أهـــي شيء لا تـــسأم العـــين منـــه؟ ... أم لهـــا كـــل ســـاعة تجديـــد؟

بل هي «العيش» لا يزال متى استُعر ... ض يمـــلي غرائبًـــا ويفيـــد

منظـــر مـــسمع معـــان مـــن اللهـــو ... عتـــادٌ لمـــا يحـــب عتيـــد

وبهذا البيت الأخير يفطن إلى ما فطن إليه شيللر الشاعر الألماني، وتابعه عليه سبنسر الإنجليزي، من العلاقة بين الإحساس الفني بالجمال وبين اللهو الذي هو نتيجة الفائض من النشاط العضوي.

وقلَّ من بين شعراء العرب أو غيرهم من يقارب ابن الرومي في دقة إحساسه بالجمال في جميع مظاهره وأشكاله، ولقد فقد شبابه وبكاه في عدة قصائد، فكان أكثر ما بكى منه أن فقد به القدرةَ على التمتع بالجمال. اقرأ له قصيدته التي مطلعها:

أبين ضلوعي جمرة تتوقد ... على ما مضى أم حسرة تتجدد

وتأمل قوله فيها:

وفقدُ الشباب الموتُ يوجد طعمه ... صراحًا وطعم الموت بالموت يفقد

فماذا تره في ظنك يبكي بهذا البيت؟ الموت في الحياة؟ وماذا يكون هذا إلا ما ذكرنا؟ ثم قوله بعده:

سلبت سواد العارضين وقبله ... بياضهما المحمود إذ أنا أمرد

وبدلت من ذاك البياض وحسنه ... بياضًا ذميمًا لا يزال يسود

لشتان ما بين البياضين: معجب ... أنيق، ومشنوء إلى العين أنكد

وكنت جلاء للعيون من القذى ... فقد جعلت تقذي بشيبي وترقد

هي الأعين النُّجل التي كنت تشتكي ... مواقعها في القلب والرأس أسود

فما لك تأسى الآن لما رأيتها ... وقد جعلت مرمى سواك تعمد؟

إلى أن يقول في انصراف نبل الغانيات عنه:

إذا عدلت عنا وجدنا عدولها ... كموقعها في القلب بل هو أجهد

ثم صرخته:

أأيـام لهـوى هـل مواضـيك عُـوَّدٌ وهـل لـشباب ضـل بـالأمس منـشد؟

خاتمة

أخطأ حسابي وحساب الناشر، فجاوز الكتاب ما كنا نتوقع له، وما كان العزم أن نقصره عليه، فمعذرة إذا كنا قد أسأنا بالإطالة، وضاعفنا بها بواعث الملالة!

والكتاب، كما هو الآن في يد القارئ، يمثِّل منزعَ الناشر أكثر مما يمثل نفسَ الكاتب. فقد أبى إلا أن يخليه من نقد المعاصرين ليريح نفسه من حماقات المعاتبين! وحسنًا فعل، أو شرًّا فعل، كما تريد! ومن الذي يستطيع الراحة ولا يستريح؟ غير أن الكتاب بهذه الصورة يعرض مني جانبًا ويطوي جانبًا، ويصور للقراء لين ملمسي ويستر أظافري، ويبديني مفترَّ الثغر منزوع النيوب مقلوع الضروس! ولست أبالي كيف أبدو للقارئ! وما كنت لأعني بجمع هذه أو تلك من مقالاتي ونشرها، بعد أن طويت مع الصحف التي ظهرت فيها، لولا أني فرّجت بذلك أزمة كانت مستحكمة! وما أراني أنقذتها أو أحييتها، بل بعثتها من قبورها لتلقى حسابها! ولعله كان خيرًا لها أن تظل ملفوفة في أكفانها!

وأحسبني بعد أن صارحت القارئ بهذا الذي لم يكن يعلمه، لأ أحتاج أن أقول: إني لا أكتب للأجيال المقبلة، ولا أطمع في خلود الذكر. وهل ترى ستكون هذه الأجيال المقبلة محتاجة -كجيلنا- إلى هذه البدائه؟ أليست أحق بأن يكتب لها نفر منها؟ أمِنَ العدل أم من الغبن أن نكلف الكتابة لجيلنا ولما بعده أيضًا؟ تالله ما أحق هذه الأجيال المقبلة بالمرثية إذا كانت ستشعر بالحاجة إلى ما أكتب!! ليتهمها غيري بالعقم إذا شاء!

ويرى القارئ في كتابي هذا مقالًا كان في الأصل مقدمة لكتاب جمعت فيه ما نقدت

به شعر حافظ منذ أكثر من عشر سنين. وللقارئ الحق أن يستغرب أن أنقل مقدمة كتاب مطبوع وأن أدسها هنا، ولهذا سبب لا أرى بأسًا من إيضاحه: جمعت فيما مضى نقدي لشعر حافظ وطبعته ونشرته، وبعت منه عددًا ليس بالقليل، ثم أخذ الشراةُ يبطئون عليَّ، فضقت ذرعًا بما بقي من نسخه، فحملتها إلى بقّال رومي اشتراها مني بالإقة! وعزيت نفسي عن ذلك بقولي لنفسي: إن جبن الرومي وزيتونه أحق بهذا النقد! ثم مضت عشرة أيام وبعض عام وشرعنا نطبع «حصاد الهشيم» هذا، وإنا لماضون في ذلك إذ جاءني صديق يعودني، وكنت مريضًا، وأطلعني على صحيفة ينشر فيها بعضهم نقدًا لشعر حافظ، وأكثر مسروق من قديم نقدي!! وسألني الصديق: «أأنت الكاتب؟» قلت: «كلا!».

قال: «إذن فهي سرقة يحسن التنبيه إليها».

وألحَّ عليَّ في ذلك، فقلت له: «اسمع! زعموا أن نصًّا تسلَّل إلى بيت فألفاه أفرغ من فؤاد أم موسى! وعز عليه أن ينقلب صفر اليدين، أو كما يقول العرب -رحمهم الله- أو ما شاء فليصنع بهم، خالي الوفاض بادي الأنفاض، فواصل البحث وهو مغيظ محنق، فما راعه إلا رجل في بعض الغرف مختبئ في ركن، ووجهه إلى الحائط. فلما ثابت إليه نفسه بعد الدهشة، قال: لعله لص مثلي وضحك! ودنا منه فلم يتحرك، فوضع يده على كتفه في رفق وسأله: «من أنت يا هذا؟ وماذا تصنع هنا؟».

فاستدار الرجل وقال ووجهه إلى الأرض: «أنا صاحب البيت!! وقد شعرت بدخولك وأدركت غرضك فتواريت منك خجلًا!!».

وأنا يا صديقي كصاحب هذا البيت العاري! أستحيي أن أنبِّه إلى سطو صاحبنا المتلصِّص على نقدي، مخافة أن يتنبه الناس إلى ما أرجو مخلصًا أن يكونوا قد نسوه من

أني أنا كاتب ذلك الهراء القديم! ومن أجل ذلك أهب لِلصَّنا ما عدا عليه وبزّني إياه، وما أسهل أن يهب المرءُ غير شيء!!

فضحك صاحبي وانصرف! وخطر لي بعد أن وهبت النقد لسارقه أن أستنقذ المقدمة.

ولم يبق مما أريد أن أقوله في هذه الخاتمة سوى كلمة واحدة: هي أني مستغنٍ عن رضا النقاد المتحذلقين عن كتابي هذا، وقانع باستحسان أمثالي من الأوساط المتواضعين، وهم -بحمد الله- كثيرون في هذا البلد الأمي! بل أكثر مما يلزم لي!

٢٨ يناير سنة ١٩٢٥م

إبراهيم عبد القادر المازني